كتاب

الحسنة و السيئة

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن تيمية

(٦٦١هـ - ٧٢٨هـ)

ضبطت نصه وخرجت أحاديثه

حنان بنت علي بن حافظ

دار الريان للتراث



الحَسَنَة وَالسَّيِّئَة

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن تيمية

(٦٦١هـ - ٧٢٨هـ)

ضبطت نصه وخرّجت أحاديثه

حنان بنت علي بن حافظ

دار الريان للتراث



١٧٧ شارع الأهرام - إسباتس - الجيزة

٢٠ شارع الأندلس خلف الميرلاند - مصر الجديدة - القاهرة

معرض رقم ٨ ميدان الأوبرا - القاهرة

١ شارع البورصة من شارع قصر النيل - القاهرة

٤٣ أ شارع رمسيس - القاهرة

برج رمادا - سيدى بشر - الاسكندرية

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

مقدمة التحقيق

إنّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ، ونَعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئَاتِ أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلل فلا هاديَ له .

وأشهد أن لا إله إلّا الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله **﴿ يَاأَيُّهاَ الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا الله حق تُقَاتِه ، ولا تَمُوتُنَّ إلّا وأنتم مُسْلِمُونَ ﴾** [آل عمران : ١٠٢] **﴿ ياأَيُّهاَ النّاس اتّقُوا ربّكم الذي خَلَقَكُم من نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَق منها زَوجَهَا وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتّقُوا الله الذي تَسَاءَلُون به والأَرحام ، إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾** [النساء : ١] **﴿ ياأَيُّهاَ الذين آمنوا اتّقُوا الله وقُولُوا قولاً سَدِيداً ، يُصْلِح لكم أعمالَكُم ويغفر لكم ذُنُوبَكُم ، ومن يُطع الله ورسولَه فقد فَازَ فوزاً عظيماً ﴾** [الأحزاب : ٧٠ — ٧١] .

وبعـــــد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هديُ محمدٍ ﷺ ، وشرّ الأمورِ محدثاتها ، وكل مُحدَثةٍ بِدْعَة ، وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالة فى النّار .

وبعـــــد :

فإننا نقدم اليوم للقراء الكرام إحدى رسائل شيخ الإسلام وعلم الأعلام ، العالم الرباني المجاهد الصادق الصابر الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبِي القاسم ابن تيمية الحرّانيُ ثم الدمشقي الحنبلي تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين بن مجد الدين .

وهذه الرسالة هى « **الحسنة والسيئة** » التى تناول فيها شيخ الإسلام قوله تعالى **﴿ ما أصابك من حسنةٍ فمن الله ، وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك ﴾** [النساء : ٧٩]

وهذه الرسالة طبعت مراراً في مصر ولبنان ، ولكن لا تخلو هذه الطبعات من التحريف في النص ، والخلل فى تخريج الآيات الكريمات والأحاديث النبوية الشريفة .

فمنّ الله علينا بمراجعة كل النسخ المطبوعة على أصلها في « مجموع الفتاوي » الجزء الرابع عشر وتصحيح ما كان بهذه النسخ من أخطاء وسقط فى بعض المواطن .

كما قمنا بتخريج أحاديث الكتاب والحكم عليها بما حكم به أهل العلم والفضل من أصحاب الحديث جزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء .

ثم ليُعلم أن شيخ الإسلام كان يروي الأحاديث بالمعنى فتارةً يأتى به كما قاله النبى ﷺ ، وتارةً يأتى بمعناه أو لفظ قريب من لفظ النبوة . فإذا قال هذا أو ذاك عزونا الحديث فى الهامش إلى مصادره من كتب السنة غير ملتزمين بإيراد الحديث أثناء التحقيق خشية إطالة الهامش .

ووضعنا لكل فقرة من فقرات الرسالة عنوان يناسبها مهتدين فى ذلك بالطبعات السابقة .

وفى النهاية . نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل فاتحة خير لنا ولجميع المسلمين لفهم كتاب الله وفهم كلام رسول الله ﷺ وأن يرزقنا الفقه فى الدين والعمل بما فقهنا . وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

وكتبته

حنان بنت علي بن حافظ

١ / جمادى الآخرة / ١٤٠٨هـ

الموافق ٢٠ / يناير / ١٩٨٨م

الجيزة ـــ هرم .

فصل

في قوله تعالى :﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] ، وبعض ما تضمنته من الحِكم العظيمة .

موقع الآية في سياق سورة النساء .

هذه الآية ، ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه .. قال تعالىٰ : ﴿ يأيها الذين آمنو خُذُ وا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انِفِرُوا جَمِيعاً ﴾ [النساء ٧١] .. الآيات .. إلى أن ذكر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله ، وطاعة الرسول ، والتحاكم إلى الله والرسول ، ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول ، وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .

فكانت تلك الآيات تبييناً للإيمان بالله وبالرسول ؛ ولهذا قال فيها : ﴿ فَلاَ وربِّك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] .

وهذا جهاد على ما جاء به الرسول ، وقد قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يَرْتَابُوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤُكُم وأبناؤُكُم وإخوانُكُم

وأزواجكُم وعشيرتكم وأموالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وتجارة تَخْشَوْنَ كسادها ومساكنُ تَرْضَوْنَهَا أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فَتَرَبَّصُوا حتى يَأْتِيَ الله بأمره وٱللّه لا يهدى القوم الفسقين ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وقال : ﴿ أجعلتم سقاية الحاجِّ وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لايستون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربُّهم برحمة منه ورضوان وجنَّاتٍ ﴾ [التوبة١٩ — ٢١] .. الآية ..

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنْجِيكُمْ من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يَغْفِرْ لكم ذنُوبكم وَيُدْخِلْكُم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبةً فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبشر المؤمنين * يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمَنَتْ طائفةٌ من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيَّدنا الذين آمنو على عَدُوِّهِمْ فأصبحوا ظاهرين﴾ . [الصف : ١٠ — ١٤]

وذكر بعد آيات الجهاد ، إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه الله ، ونَهْيَه عن ضد ذلك ، وذكَّره

فضل الله عليه ، ورحمته في حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له ، وتعليمه ما لم يكن يعلم ، وذم من شاقّ الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره ، وأن الله لا يغفره ، ولكن يغفر ما دونه لمن يشاء .. إلى أن بَيَّنَ أن أحسن الأديان دين مَنْ يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، بشرط أن تكون عبادته بفعل الحسنات التي شرعها ، لا بالبدع والأهواء .. وهم أهل ملة إبراهيم الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ﴿ واتخذ إبراهيمَ خليلا ﴾ . [النساء : ١٢٥] .

فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم ، وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما أمر به على ألسُنِ رسله من الحسنات .

وقد ذكر تعالى في ضمن آيات الجهاد ــ ذمَّ من يخاف العدو ، ويطلب الحياة . وبيّن أن ترك الجهاد لا يدفع عنهم الموت ، بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ؛ فلا ينالون بِتَرْكِ الجهاد مَنْفَعَةً ، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة ؛ فقال تعالى : ﴿ الم تر إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يَخْشَوْنَ الناس كخشية الله أو أشَدَّ خشية وقالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أَخَّرْتَنَا إلى أجل قريب قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خَيْرٌ لمن اتَّقَى ولاتظلمونَ فَتِيلاً ﴾ . [النساء :٧٧] .

وهذا الفريق ، قد قيل : إنهم منافقون .

وقيل : نافقوا لماّ كتُب عليهم القتال .

وقيل : بل حصل منهم جُبن وفَشَل ؛ فكان في قلوبهم مرض .. كما قال تعالى :﴿ فإذا أنزلت سورةٌ مُحْكَمة وذُكِرَ فيها الْقِتَالُ رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المَغْشِيّ عليه من الموت فأوْلى لهم * طاعةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ [محمد ٢٠ — ٢١] ... الآية .

وقال تعالى : ﴿ أذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ . [الأحزاب : ١٢]

والمعنى متناول لهؤلاء ، ولهؤلاء ، ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال :﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بُرُوجٍ مشيدةٍ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فَمَا لِهَؤُلاَء القوم لا يكادونَ يفقهون حَدِيثاً ﴾ . [النساء : ٧٨]

فالضمير في قوله : ﴿ وإن تصبهم ﴾يعود إلى مَنْ ذُكِرَ ، وهم : ﴿ الذين يخشون الناس ﴾ ، أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر ، كما في مواضع كثيرة .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود .

وقيل : كانوا منافقين .

وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء .

والمعنى يَعُمُّ كل من كان كذلك ، ولكن تناوله لمن أظهر الإسلام وأُمر بالجهاد أولى .

ثم إذا تناول الذّم هؤلاء ، فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أَوْلَى وأحرى .

* * *

معنى الحسنة والسيئة في القرآن

الذي عليه عامة المفسرين : أن « الحسنة » و « السيئة » ، يراد بهما النعم والمصائب ، ليس المراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

ولفظ « الحسنات » و « السيئات » في كتاب الله ، يتناول هذا وهذا .. وقال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حسنة تَسُؤْهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتَّقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ [آل عمران : ١٢٠]

وقال تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبكم مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل وَيَتَوَلَّوْا وهم فرحون ﴾ [التوبة : ٥٠]

وقال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ [الأعراف : ١٦٨]

وقال تعالى : ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمةً فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ [الشورى : ٤٨]

وقال تعالى في حق الكفار الْمُتَطَيِّرِين[1] بموسى ومن معه : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يَّطيروا بموسى ومن معه ﴾[الأعراف : ١٣١]، ذكر هذا بعد قوله : ﴿ ولقد أَخَذْنَا آل عمران بالسِّنِين ونَقْصٍ من الثَّمَرَات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٠]

* * *

[المأمور به والمنهي عنه]

وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهيّ عنها ؛ ففي مثل قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منهاومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾[القصص : ٨٤]

وقال تعالى : ﴿ إن الحسنات يُذْهِبنَ السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ [هود : ١١٤]

وقال تعالى : ﴿ فأولئك يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ [الفرقان : ٧٠]

* * *

[معنى التعبير « بما أصابك »]

وهنا قال : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ولم يقل : وما فعلت ، وماكسبت ...

---

(١) التطير : هو التشاؤم . وقيل معناه : التفرق والذهاب .

كما قال : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾
[الشورى : ٣٠]

وقال تعالى : ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ [المائدة : ٤٩]

وقال تعالى : ﴿ قل هل تَرَبَّصُونَ بنا إحدى الْحُسْنَيَيْنِ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾
[التوبة : ٥٢]

قال تعالى :﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قَارِعَة أو تحل قريباً من دارهم ﴾ [الرعد : ٣١]

وقال تعالى : ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾
[المائدة :١٠٩]

وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الذين إذا أصابَتْهُمْ مصيبة قالوا إن لله وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة : ١٥٥ — ١٥٦]

فلهذا كان قوله : ﴿ ما اصابك من حسنة ﴾ و ﴿ من سيئة ﴾ متناول لما يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التى تسره ، ومن المصائب التى تسوءه .

فالآية متناولة لهذا قطعاً ، وكذلك قال عامة المفسرين .

* * *

[أقوال المفسرين في الآية]

قال أبو العالية :[1] « إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله » قال : هذه في السرء ، « وإن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » ، قال : وهذه في الضراء .

وقال السُّدِّي[2] : « إن تصبهم حسنة قالوا » — والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان ، « قالوا : هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة قالوا : » — والسيئة : الضرر في أموالهم ، تشاؤماً بمحمد ، « قالوا : هذه من عندك » — يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً ، أصابنا هذا البلاء ، فأنزل الله ﴿ قل كل من عند الله ﴾ الحسنة والسيئة ، « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » — قال : القرآن .

وقال الوالبي[3] عن ابن عباس : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ — قال : ما فتح الله عليك يوم بدر ، وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبي أيضاً عن ابن عباس : « من حسنة » — قال : ما أصاب من الغنيمة والفتح فمن الله ، قال : « والسيئة » ما أصابه

---

(١) أبو العالية الرياحي رفيع بن مهران ، البصري ثقة تابعي فقيه ، مقرىء رأى أبا بكر الصديق .

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي : تابعي ، ثقة .

(٣) هو على بن ربيعة بن نضلة ثقة من كبار التابعين .

يوم أُحد ؛ إذ شُجَّ في وجهه ، وكُسِرَت رباعيته . وقالَ : أما « الحسنة » فأنعم الله بها عليك ، وأما « السيئة » فابتلاك الله بها .

وروي أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس : « ما أصابك من حسنة فمن الله » ــ قال : هذا يوم بدر . « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ــ قال : هذا يوم أُحد . يقول : ما كان من نكبة ، فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روي ابن عيينة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح : « فمن نفسك » ــ قال : فبذنبك ، وأنا قدَّرتها عليك .

روى هذه الأثار ابن أبي حاتم[1] وغيره .

وروى أيضاً عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير ، قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء :

أي من نفسك والله ما وُكِلُوا إلى القدر ، وقد أُمِرُوا به ، وإليه يصيرونّ .

وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس : « إن تصبهم حسنة » ــ الخصب والمطر ، « وإن تصبهم سيئة » ــ الجدب والبلاء .

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن إدريس بن المنذور التميمي الحنظلي الرازي ، أبو محمد : وروى هذه الآثار في تفسيره .

وقال ابن قتيبة : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ـــ قال : الحسنة : النعمة ، والسيئة : البلية .

وقد ذكر أبو الفرج [1] في قوله : « ما أصابك من حسنة ـــ ومن سيئة » ثلاث أقوال .

أحدها : أن « الحسنة » ما فتح الله عليهم يوم بدر ، و « السيئة » ما أصابهم يوم أُحد . قال : رواه ابن أبي طلحة ـــ وهو الوالبي ـــ عن ابن عباس .

قال : والثاني : « الحسنة » : الطاعة . و « السيئة » : المعصية ـــ قاله أبو العالية .

والثالث : « الحسنة » : النعمة ـــ و « السيئة » : البلية ـــ قاله ابن منبه . قال : وعن أبي العالية نحوه ، وهو أصح .

* * *

[رأى ابن تيمية]

قلت : هذا القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذي يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبي جعفر الداري عن الربيع ابن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثاني : فهو لم يذكر إسناده ، ولكن ينقل من كتب

(١) هو عبد الرحمن بن عليّ بن محمد الجوزي القرشي البغدادى ، أبو الفرج : (٥٠٨ ـــ ٥٩٧ هـ) وقد ذكر ذلك فى تفسيره المسمى « زاد المسير في علم التفسير » [ص : ١٣٨ : ١٣٩] .

المفسرين ، الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد ، وكثير منها ضعيف ، بل كذب ، لا يثبت عمن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف ، وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية . فأما الصنف الأول ، فهي تتناوله قطعاً ، كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف . وأما المعنى الثاني ، فليس مراداً دون الأول قطعاً ، ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة ، هو نعمة في حقه من الله أصابته ؛ وما يقع منه من المعصية هو سيئة أصابته ، ونفسه التي عملت السيئة .

وإذا كان الجزاء من نفسه ؛ فالعمل الذي أوجب الجزاء أولى أن يكون من نفسه ؛ فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه ، مع أن الجميع مقدر كما تقدم . وقد روي عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ « فمن نفسك ، وأنا قدرتها عليك » .

* * *



فصـــل

[تتابع المعاصي]

والمعصية الثانية ، قد تكون عقوبة الأولى ؛ فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي ﷺ ، في الحديث المتفق على صحته ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ :
« عَلَيكُم بالصِّدقِ ؛ فإنَّ الصِّدْقَ ، يَهْدِي إلى البرِّ ، والبر يهدي إلى الجنَّة ، ولا يَزالُ الرَّجُل يَصْدُقُ ، ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حتّى يُكتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً . وإيّاكُم والكذِب ؛ فإن الكذِبَ يهدي إلى الفُجُورِ ، والفُجُورُ يهدي إلى النّارِ ، ولا يَزالُ الرَّجُل يَكْذِبُ ، ويتحرّى الكَذِبَ ، حتى يُكتَبَ عِنْدَ الله كَذّاباً »[1] .

* * *

[تتابع الحسنات]

وقد ذكر في غير موضع من القرآن ، ما يبين أن الحسنة الثانية ، قد تكون من ثواب الأولى ، وكذلك السيئة الثانية ، قد تكون من عقوبة الأولى .

---

(١) **صحيـــح** .
أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) ، وأبو داود (٤٩٨٩) ، والترمذي (١٩٧٥) ، وأحمد بن حنبل (١ / ٤٣٢) ، والبيهقي في '' السنن '' (١٠ / ١٩٦) من طريقين ، عن ابن مسعود عنه به مرفوعا .

وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يُوعَظونَ به لكان خيراً لهم وأشد تَثْبِيتاً وإذاً لآتيناهم من لَدُنَّا أجراً عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما ﴾ [النساء : ٦٦ — ٦٨]

وقال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩]

وقال تعالى : ﴿ والذين قُتِلُوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم سيهديهم ويُصْلِحُ بَالَهَمُ ويُدْخِلُهُمْ الجنة عَرَّفَها لهم ﴾ [محمد : ٤ — ٦]

وقال تعالى : ﴿ ثم كان عَاقِبَة الذين أَسَٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰ ﴾ [الروم : ١٠]

وقال تعالى : ﴿ وكتابٌ مبينٌ يهدي به الله من اتَّبَعَ رِضوَانَهُ سُبُلَ السلام ﴾ [المائدة : ١٥ — ١٦]

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلَيْنِ من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ﴾ [الحديد : ٢٨]

وقال تعالى : ﴿ وفي نُسْخَتِهَا هدى ورحمةٌ للذين هم لربهم يَرْهَبون ﴾ [الأعراف : ١٥٤]

وقال تعالى : ﴿ هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظةٌ للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٣٨]

وقال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدًى وشِفَاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عليهم عَمًى ﴾[فصلت : ٤٤]

وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وإخوانُهُمْ يَمُدُّونهم في الغَيِّ ثم لا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١ — ٢٠٢]

وقال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوءَ والفحشاءَ إنه من عبادنا المُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤]

وقال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حُكماً وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ [يوسف : ٢٢]

وقال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾ [القصص : ١٤]

وقال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطلَ وأن الذين آمنوا اتَّبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾[محمد : ١ — ٣]

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا شديداً يُصْلِحْ لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾
[الأحزاب : ٧٠ — ٧١]

وقال تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم مَا حُمِّلْتُمْ إن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ [النور : ٥٤]

* * *

[تحكيم السُنَّة وتحكيم الهوىٰ]

قال أبو عثمان النيسابوري : من أمَّرَ السنة على نفسه ، قولاً وفعلاً — نطق بالحكمة . ومن أمّرَ الهوى على نفسه ، قولاً وفعلاً — نطق بالبدعة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا﴾ [النور : ٥٤]

قلت : وقد قال في آخر السورة :

وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عن أمره أن تُصِيبَهُمْ فتنةٌ أو يصيبهَم عذابٌ أليم ﴾ [النور : ٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما يُشْعِرُكُم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وَنُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أولَ مَرَّةٍ ﴾ .
[الانعام : ١٠٩ — ١١٠]

وقال تعالى : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم الْتَقَى الجَمْعَانِ إنما اسْتَزَلَّهُ الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾
[آل عمران : ١٥٥]

وقال تعالى : ﴿ وإذا قال موسى لقومه يا قوم لم تُؤْذُونَني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زَاغُوا أزاغ الله قلوبهم والله

لا يهدي القوم الفاسقين ...... ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعي إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾
[الصف : ٥ — ٧]

وقال تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يأمنون ﴾ [البقرة : ٨٨]

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وقولهم قلوبنا غُلْفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٥٥]

وقال تعالى : ﴿ فبُهِتَ الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : ٢٥٨]

وقال تعالى : ﴿ ويوم حُنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ثم وَلَّيْتُمْ مدبرين ثم أنزل الله سَكِينَتَه على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعَذَّبَ الذين كفروا ﴾ [التوبة : ٢٥ — ٢٦]

وقال تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنى معكم فَثَبِّتُوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بَنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ [الأنفال : ١٢ — ١٣]

وقال تعالى : ﴿ سنلقي فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ [آل عمران : ١٥١]

وقال تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مَانِعَتُهسمْ حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يَحْتَسِبُوا وقذَف في قلوبهم الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فَاعْتَبِرُوا ياأولي الأبصار ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

[الحشر : ٢ — ٤]

وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّكُم إلا أَذىً وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبار ثم لا يُنْصَرُونَ ضربت عليهم الذِّلَّةُ آيْنَ مَاثُقِفُوا إلا بحبل من الله وحَبْلٍ من الناس وبَآؤُ بِغَضَبٍ من الله وضُربت عليهم المسكنة ذلك أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

[آل عمران : ١١١ — ١١٢]

وقال تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولَّون الذين كفروا لبئس ما قَدَّمت لهم أنفسهم أنْ سَخِطَ الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما أتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ [المائدة : ٨٠ —٨١]

وقال تعالى : ﴿ ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ [المائدة : ٨٢]

وقال تعالى : ﴿ فَهَل عَسَيْتُمْ إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطِّعوا ارحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها إن الذين ارْتَدُّوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطانُ سَوَّلَ لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كَرِهُوا ما نَزَّلَ الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴾ [محمد : ٢٢ — ٢٦]

وقال تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لَنَصَّدَّقَنَّ ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخِلُوا به وتولَّوْا وهم معرضون فَأَعْقَبَهُمْ نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَهُ بما أخلفوا الله ما وعَدُوه وبما كانوا يكذبون ﴾ .

[التوبة : ٧٥ — ٧٧]

وقال تعالى : ﴿ فإن رَجَعَك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لَنْ تَخْرجوا مَعِيَ أبداً ولن تقاتلوا مَعِيَ عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾[التوبة : ٨٣]

وقال تعالى فى ضد هذا : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرةً تأخذونها فعَجَّلَ لكم هذه وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين وَيهْدِيكُم صراطاً مستقيما — إلى قوله — ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوُا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾

[الفتح : ٢٠ — ٢٣]

وتوليتهم الأدبار ، ليس مما نُهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم .

وهذا باب واسع .



فصـــل

سيئات النفس

وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان ، قد تكون من جزاء سيئات تقدمت ـــ وهي مضرة ـــ جاز أن يقال : هي مما أصابه من السيئات ، وهي بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير ، فالذنوب التي يعملها ، هي من نفسه ، وإن كانت مقدَّرة عليه ، فإنه إذا كان الجزاء ، الذي هو مسبب عنها من نفسه ، فعمله الذي هو ذلك الجزاء ـــ من نفسه بطريق الأولى .

وكان النبي ﷺ يقول في خطبته :
« نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا »[1] .

وقال له أبو بكر رضي الله عنه : عَلِّمني دعاءَ ، فقال :
« قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، ربَّ كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك

---

(١) صحيـــح .
رواه أبـــو داود (١٠٩٧) (٢١١٨) ، والترمـــذي (١١٠٥) ، وقال : صحيح ، والنسائي (٣ / ١٠٤ ـــ ١٠٥) (٦ / ٨٩ ـــ ٩٠) ، وابن ماجه (١٨٩٢) ، وأحمد (١ /٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٣٢) ، والدرامي (٢ / ١٤٢) وهو جزء من حديث خطبة الحاجة ، عن عبدالله بن مسعود مرفوعا به .

من شر نفسي ، وشر الشيطان وشَرَكه[1] ، وأن أقترف على نفسي سوءًا ، أو أَجُرَّه إلى مسلم ، قُلْهُ إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك »[2] .

فقد بينّ أن قوله : ﴿ فمن نفسك ﴾ يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال ، مع أن الكل بقدر الله .

* * *

---

(١) شَرَكه بفتح الشين والراء : مصائده وحبائله . وأما بكسر الشين فهو الإشراك بالله .

(٢) **صحيـــح** .

أخرجه أبو داود (٥٠٧٦) ، وأحمد بن حنبل (١ / ٩ ، ١٠ ، ٢ /٢٩٧) ، والنسائي في '' عمل اليوم والليلة '' (١١ ، ٥٧٢ ، ٨٠٠) ، وابن حبان في '' صحيحه '' (٥٩٨) ، والبخاري في '' الأدب المفرد '' (١٢٠٢) وفي '' خلق أفعال العباد '' (٣٤) ، والدرامي (٢ / ٢٩٢) ، وأبو يعلى في '' مسنده '' (٧٧) ، والحاكم في '' المستدرك '' (١ / ٥١٣) جميعا من طريق يعلى بن عطاء ، عن عمرو بن عاصم ، أنه سمع أبا هريرة يقول : أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله ! علّمني شيئا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال : قل اللهم . . . فذكره .

وقال الحاكم : صحيح ووافقه الذهبي وهو كما قالا .

أما رواية الترمذي (٣٥٢٩) فهي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص لا من حديث أبي هريرة . وقال الترمذي : حسن غريب .

فصـــل
[بطلان مذهب القدرية[1] والردُّ عليهم]

وليس للقدرية أن يحتجّوا بالآية[2] لوجوه :

منها : أنهم يقولون : فعل العبد ، حسنة كان أو سيئة ، هو منه ، لا من الله . بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات ، لكن هذا ، عندهم ، أحدث إرادة فعل بها الحسنات ، وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات ، وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم .

---

(١) القدرية هم : أتباع جهم بن صفوان السمرقندي الضّال المبتدع الذي هلك في زمن صغار التابعين ، والذي أخذ آراءه عن الجعد بن درهم أول من ابتدع التعطيل في نفي أسماء الله وصفاته وترك عبادة الله والقول بخلق القرآن . وسُمّوا بذلك : لأنهم أول من كذّب بالقدر ، وأول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني .
وأخرج اللالكائي في '' شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة '' (١٣٩٨) بسنده إلى محمد بن شعيب ، قال : سمعت الأوزاعى يقول : '' أول من نطق فى القدر : رجل من أهل العراق يقال له : سوسن كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد ، وأخرجه أيضا الآجري في '' الشريعة '' (٢٤٢) ، وابن بطة في '' الإبانة ''(٢ / ٤١٤ — ٤١٥) .
والقدرية هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله قاتلهم الله .

(٢)هى الآية ٧٩ من سورة النساء

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات ، وهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر ، لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات ، بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

لكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمال الحسنه والسيئة ما يكون جزاء . كما يقوله أهل السنة .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله ، ولا كل السيئات ، بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثاني : أنه قال : « كل من عند الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله . وهم لا يقولون بذلك في الأعمال ، بل في الجزاء .

وقوله بعد هذا : ﴿ ما أصابك من حسنة ــ ومن سيئة ﴾ مثل قوله : ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ وقوله ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ .

الثالث : أن الآية أُريدَ بها النعم والمصائب كما تقدم ، وليس للقدرية المجبِّرة أن تحتجّ بهذه الآية على نفْي أعمالهم التي استحقوا بها العقاب ؛ فإن قوله : ﴿ كل من عند الله ﴾ هو النعم والمصائب ، ولأن قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ حجة عليهم ، وبيان أن الإنسان هو فاعل السيئات ، وأنه يستحق عليها العقاب ، والله ينعم عليه بالحسنات عملها وجزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو

من الله ، فالنعم من الله ، سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء . وإذا كانت جزاء ، وهي من الله ، فالعمل الصالح الذي كان سببها ، هو أيضاً من الله ، أنعم بهما الله على العبد . وإلا فلو كان هو نفسه ، كما كانت السيئات من نفسه ، لكان كل ذلك من نفسه .

والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنة :

كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله ﴿ يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومَنْ وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه ﴾[1] .

---

(١) صحيح .

هو جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٢٥٧٧) ، عن أبي ذر ، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

'' يا عبادي ! إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي ! كلكم ضال إلا من هديته . فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي ! كلكم عارٍ إلا من كسوته . فاستكسوني أكسكم يا عبادي ! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً . فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضَرّي فتضروني . ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، مازداد ذلك في ملكي شيئاً . ياعبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . كانو على أفجر قلب رجل واحد . فانقص ذلك من ملكى شيئا . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم . وإنسكم وجنكم . قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني . فأعطيت كل أنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر . يا عبادي ! إنما هي أعمالكم . . . . فذكره .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَّمَا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مِثْلَيْهَا قلتم أنىَّ هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ [آل عمران : ١٦٥]

وقال تعالى : ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقْنطُونَ ﴾ [الروم : ٣٦]

وقال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس لِيُذِيقَهُمْ بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾
[الروم : ٤١]

وقال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾
[هود : ١٠١]

وقال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾
[الزخرف : ٧٦]

وقال تعالى : ﴿ لَأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : ٨٥]

وقال تعالى : ﴿ ولكن الله حَبّبَ إليكم الإيمانَ وَزَيَّنهُ في قلوبكمْ وَكَرَّهَ إلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧]

وقد أُمروا أن يقولوا فى الصلاة : ﴿ اهدنا الصِّراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ [الفاتحة ٦ — ٧]

وقد أُمروا أن يقولوا فى الصلاة : ﴿ اهدنا الصِّراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ [الفاتحة ٦ — ٧]

* * *



فصـــل

لا تناقض في الآية

وقد ظن طائفة : أن في الآية إشكالا ، أو تناقضاً في الظاهر ؛ حيث قال : « كل من عند الله » ، ثم فرق بين الحسنات والسيئات ؛ فقال : « وما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبّرهم الآية . وليس في الآية تناقض ، لا في ظاهرها ، ولا في باطنها ، لا في لفظها ، ولا معناها ؛ فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، الناكصين[٦] عن الجهاد ما ذكره بقوله : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقول هذه من عندك ﴾ [النساء : ٧٨] هذا يقولونه لرسول الله ﷺ ، أي بسبب ما أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات ، هي المصائب . والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب ، هو أمَرَهم بها .

وقولهم ﴿ من عندك ﴾ ، تتناول مصائب الجهاد التي توجب الهزيمة ؛ لأنه أمرهم بالجهاد ، وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم والتطيّر . أي هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يَتَطَيَّرُونَ بموسى وبمن معه ، وكما قال أهل القرية للمرسلين : ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ [يس : ١٨] وكما قال الكفار من ثمود لصالح ولقومه : ﴿ أطيرنا بك وبمن

معك ﴾ [النمل : ٤٧] فكانوا يقولون عما يصيبهم من الحرب ، والزلزال ، والجراح ، والقتل ، وغير ذلك ما يحصل من العدو ، هو منك لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك . ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السماوية : إنها منك ؛ أي بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك ، أصابتنا هذه المصائب » . كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير إطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ﴾ [الحج : ١١] .

فهذا يتناول كل مَنْ جعل طاعة الرسول وفعل ما بعث به ــ مسبباً لشر أصابه ، إما من السماء ، وإما من آدمي . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا : « هذه من عندك » بمعنى : أنك أنت الذي أحدثتها ؛ فإنهم يعلمون أن الرسول ﷺ لم يحدث شيئاً من ذلك . ولم يكن قولهم « من عندك » خطاباً من بعضهم لبعض ، بل هو خطاب للرسول ﷺ .

* * *

[قول أعداء الرسل]

من فهم هذا تبين له أن قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ لا يناقض قوله : ﴿ كل من عند الله ﴾ بل هو محقق له ؛ لأنهم ، هم ومَنْ أشبههم إلى يوم القيامة ، يجعلون ما جاء به الرسول والعمل به سبباً لما قد يصيبهم من مصائب ، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا مما أمر الله به ، ولو كان مما أمر الله به لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون في الأصل ، لكن يقدحون في القضية المعينة ، فيقولون : هذا بسوء تدبير الرسول . كما قال عبد الله بن أبي بن سلول يوم أُحد ؛ إذ كان رأيه مع رأي النبي ﷺ ، أن لا يخرجوا من المدينة . فسأله ﷺ ناس ممن كان لهم رغبة في الجهاد : أن يخرج ، فوافقهم ، ودخل بيته ولبس لأمته . فلما لبس لأمته ندموا . وقالوا للنبى ﷺ : « أنت أعلم ، فإن شِئْت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأْمته أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » . يعني : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما يلزم الحج ، لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالأحصار[1] فى الحج .

* * *

(١) الإحصار هو : المنع والحبس .



فصـــل

التَّطيُّر بالمرسلين

والمفسرون ذكروا في قوله : ﴿ وإن تصبهم سيئة يقول هذه من عندك ﴾ [النساء ٧٨]

فعن ابن عباس ، والسدي ، وغيرهما : أنهم يقولون هذا ، تشاؤماً بدينه .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : بسوء تدبيرك ، يعني كما قاله عبد الله بن أبيّ وغيره يوم أُحد ، وهم كالذين :

﴿ قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا ﴾ [آل عمران ١٦٨]

فبكل حال ، قولهم : « من عندك » ، هو طعن فيما أمر الله به ورسوله من الإيمان والجهاد ، وجعل ذلك هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين المطيعين ، كما أصابتهم يوم أُحد . وتارة تصيب عدوهم ، فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء ، كما قال أصحاب القرية للمرسلين : ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ ، وكما قال تعالى عن آل فرعون :
﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يَطَّيَّرُوا بموسى ومن معه ألآ إنما طـائرهم عـند الله ولكـن أكثرهـم لا يعلمون ﴾[الأعراف : ١٣١] وقال الله تعالى عن قوم صالح

﴿ قالوا اطَّيَّرْنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾ [النمل : ٤٧].

ولما قال أهل القرية : ﴿ إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ [يٓس : ١٨ — ١٩] .

قال الضحاك في قوله « ألا إنما طائركم عند الله » ، يقول : الأمر من قبَلِ الله ، ما أصابكم من أمر ، فمن الله ، بما كسبت أيديكم .

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : معايبكم .

وقال قتادة : عملكم عند الله .

وفي رواية عن علي : عملكم عند الله ، ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ أي تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواهما ابن أبي حاتم وغيره .

وعن ابن إسحاق قال : قالت الرسل : ﴿ طائركم معكم ﴾ ، أي أعمالكم .

* * *

[معنىٰ الطائر]

فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها ؛ لأنهم كانوا يقولون : إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه أن طائرهم ، وهو الأعمال وجزاؤها ، هو عند الله ، وهو معهم . فهو معهم ؛ لأن أعمالهم وما قدِّر من جزائها معهم ، كما قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ [الإسراء : ١٣] وهو من الله ؛ لأن الله تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم ، فمن عنده تتنزل عليهم المصائب جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفي هذا يقال : إنهم يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال في هذا الآية ، لما كان المنافقون والكفار ومن في قلبه مرض يقول : هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا ، بيَّن سبحانه أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا ردّ على من أعرض عن طاعة الرسول ﷺ لئلا تصيبه تلك المصائب ، وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ، ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول ، ونسبها إلى ما جاء به الرسول .

* * *



فصـــل

لماذا يتعرض المؤمنون للمصائب ؟

والمقصود أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة .

ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب ، بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أُحد بسبب ذنوبهم ، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ .

* * *

[الإبتلاء]

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال ، ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ؛ ليتخلصوا مما فيهم من الشر . وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ؛ ليتميَّز طيبه من خبيثه . والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه .

قال تعالى : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾
[آل عمران : ١٤٠ ــ ١٤١] .

قال تعالى : ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

ولهذا قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تفتنون ﴾ [النمل : ٤٧] .

* * *

[المصائب أجر للمؤمنين]

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم . وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدى العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ ، قال : « ما من غازية تغزو في سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم . وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم »[1] .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب ، فذاك يكتب لهم به عمل صالح ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نَيْلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [التوبة : ١٢٠] وشواهد هذا كثيرة .

---

(١) صحيح .
أخرجه مسلم (١٩٠٦) ، وأبو داود (٢٤٩٧) ، والنسائي (٦ / ١٨) ، وابن ماجه (٢٧٨٥) ، وأحمد بن حنبل (٢ / ١٦٩) وغيرهم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً به .

فصـل

[الحسنة والسيئة ليست من عند محمد ولا يستطيع أن يأتي ـــ من عند نفسه ـــ لا بنعمة ولا بمصيبة]

والمقصود أن قوله : ﴿ إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله ﴾ فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول ، وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله ، والمصيبة من عند محمد . أي بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله ، لا من عند محمد .. محمد لا يأتي لا بنعمة ولا بمصيبة ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً ﴾ [النساء ٧٨] .

قال : السدي وغيره : هو القرآن ، فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه ، تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل ، والصدق ، والتوحيد . لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب . فإنهم إذا ما فهموا ما في القرآن علموا أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم بالأمر به حسنه ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول مَنْ يقول : قد يأمر الله

العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه ، بل فيه مضرة لهم . فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسل وأتباعهم .

ومما يوضح ذلك ، أنه لما قال : ﴿ ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء ٧٩] قال بعدها : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾ [النساء ٧٩] ؛ فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . إذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكروه من الشُّبَهِ التي هي عليهم لا لهم ، بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته . والله تعالى قد شهد له أنه أرسله للناس رسولا . فكان ختم الكلام بهذا إبطالا لقولهم ، إن المصائب من عند الرسول . ولهذا قال بعد هذا : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ [النساء ٨٠] .

* * *

فصـــل

[إبطال قول الجهمية والجبرية][1]

وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية المجبرة[1] ونحوهم ، ممن يقول : إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب ، وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما يضرهم ، فإن فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء .

والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .

فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها ! وهي حجة على الفريقين .

فإن قال نفاة القدر : إنما قال في الحسنة : « وهي من الله » ، وفي السيئة : « هي من نفسك » ، لأنه يأمر بهذا ، وينهي عن هذا ، باتفاق المسلمين .

قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر ؛ فما أمر به فقد شاءه ، وما لم يأمر به لم يشأه . فكانت مشيئته وأمره حاضة

---

(١) الجهمية المجبرة : أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجبرية الخالصة التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً . ظهرت بدعة جهم بترمذ . وقتله ابن أجوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية . وهو يوافق المعتزلة في نفس الصفات عن الذات الإلهية ، وفي القول بخلق القرآن . إلا إنه يختلف معها في مسألة القدر .

على الطاعة دون المعصية ؛ فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية فقد تبين أن الذين قالوا : ﴿ الحسنة من عند الله والسيئة من عندك ﴾ أرادوا من عندك يا محمد : إي بسبب دينك ؛ فجعلوا رسالة الرسول هي سبب المصائب . وهذا غير مسألة القدر .

وإذا كان قد أريد ، أن الطاعة والمعصية ، مما قد قيل — كان قوله : ﴿ كل منعند الله ﴾ حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا : ﴿ ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : ٧٩] لا ينافي ذلك ، بل « الحسنة » أنعم الله بها وبثوابها ، و « السيئة » هي من نفس الإنسان ناشئة ، وإن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾ [الفلق : ٢] فمن المخلوقات ماله شر ، وإن كان بقضائه وقدره .

وأنتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلا وهذا فاعلا ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها . وهذا مخالف للقرآن .

* * *

فصــل

[الفرق بين الحسنات والسيئات]

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة ؛ فما الفرق بين الحسنات التي هي النعم ، والسيئات التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من عند الله ، وهذه من نفس الإنسان؟

قيل : لفروق بينهما :

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب منهم أصلاً ؛ فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط ، وينشيء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً . ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل . وأما العقاب ، فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

الفرق الثاني : أن الذي يعمل الحسنات ــ إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة : ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا * وما كنا لنهتدي لولا أن هدآنا الله ﴾ [الأعراف ٤٣] .

وفي الحديث الصحيح : « ياعبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » .[1] .

(١) صحيح . وتقدم تخريجه رقم الصفحة (٢٩)

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة ، هو من نعمته .

ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به ، هو من نعمته .

وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين ، هو من نعمته . كما قال تعالى :

﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة ﴾ [الحجرات : ٧] .

فجميع ما يتقلب إليه العالم من خيرى الدنيا والآخرة ، هو نعمة محضة منه ، بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به . وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالهم الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله : ﴿ وما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ [النساء ٧٩] حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » ، فلا تكون إلا بذنب العبد ، وذنبه من نفسه . وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر الناس ما ينفعهم .

* * *

فصــل

شكر الله تعالى واستغفاره

فإذا تدبر العبد ، علم أن ما هوفيه من الحسنات من فضل الله ؛ فشكر الله ؛ فزاده الله من فضله عملا صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه . وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ؛ فزال عنه سبب الشر ؛ فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه .. كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته : « الحمد لله » ، فيشكر الله . ثم يقول : « نستعينه ونستغفره » ، نستعينه على الطاعة ، ونستغفره من المعصية . ثم يقول : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا »[1] ، فيستعيذ به من الشر الذي في النفس ، ومن عقوبة عمله ، فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه ؛ فيستعيذ الله من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله فاستعانه على الطاعة وأسبابها ، واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه ــ يوجب له هذا وهذا .

فهو سبحانه فرّق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما في قوله : ﴿ قل : كل من عند الله ﴾ [النساء ٧٨] .

(١) صحيح .وتقدم تخريجه « ص ٢٥ » وهو حديث « خطبة الحاجة » .

فبينَّ أن الحسنات والسيئات ، النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي ، على قول من أدخلها في « من عند الله » . ثم بين الفرق الذي ينتفعون به ، وهو أن هذا الخير من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم ، وهذا الشر من ذنوبكم ، فاستغفروه يدفعه عنكم .

قال الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

قال تعالى : ﴿ آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ [هود : ١ — ٣] .

* * *

[التأسي بالسعداء]

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه ، فقد تأسّى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين كآدم وغيره . وإذا أصرَّ واحتج بالقدر ، فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره ، أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر أن الجميع من عند الله ، تنبيهاً على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله ﷺ بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ؛ حيث علَّمه أن يقول « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر

نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجرَّه إلى مسلم »[1] .

فيستغفر مما مضى ؛ ويستعيذ مما يستقبل ؛ فيكون من حزب السعداء .

وإذا علم أن الحسنة من الله ، الجزاء والعمل ، سأله أن يعينه على فعل الحسنات بقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وبقوله : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ . وقوله : ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ [آل عمران ٨] ونحو ذلك .

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق ؛ فإنه يحصل من هذا التسوية ، إعراض العاصي والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه إن يحتج على الله بالقدر . وتلك حجة داحضة لا تنفعه ، بل تزيده عذاباً وشقاء ، كما زادت إبليس لما قال : ﴿ فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : ١٦] . وقال : ﴿ رب ما أغويتنى لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾
[الحجر : ٣٩] .

وكالذين يقولون يوم القيامة : ﴿ لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ [الزمر : ٥٧] وكالذين قالوا :﴿ لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

(١) صحيح . وتقدم تخريجه « ٣٥ »

فمن احتج بالقدر على مافعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به ، من التوبة والإستغفار ، والإستعانة بالله ، والإستعاذة به ، واستهدائه ــ كان من أخسر الناس في الدنيا والآخرة .

فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجميع .

* * *

فصـــل

مضاعفة الله تعالى للحسنات :

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله وينمِّيها ويثيبُ على الهم بها ، والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهم بها . فيعطي صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل ، وصاحب السيئة لا يجزيه إلا قدر عمله .

قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلّا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ [الأنعام :١٦٠] .

* * *

[أفعال الله كلها خير] :

الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه ؛ لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم . فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه .

وأما السيئة ، فهو إنما يخلقها بحكمة ، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه ؛ فإن الرب لا يفعل سيئة قط ، بل فعله كله حسن وحسنات ، وفعله كل خير .

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح : « والخير بيديك ، والشر ليس إليك »[1] .

(١) صحيح .

أخرجه مسلم (٧٧١) ، وأبو داود (٧٦) ، والترمـذي =

فإنه لا يخلق شراً محضاً ، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر جزئي إضافي . فأما شر كلي ، أو شر مطلق ، فالرب منزه عنه . وهذا هو الشر الذي ليس إليه .

وأما الشر الجزئي الإضافي ، فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط ، بل إما يدخل في عموم المخلوقات ، كقوله :﴿ وخلق كل شيء ﴾ [الفرقان ٢] .

وإما أن يضاف إلى السبب ، كقوله :﴿ من شر ما خلق ﴾ [الفلق ٢] .

وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن : ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ [الجن : ١٠] .

* * *

(٣٤٢٣) ، والنسائي (٢ / ١٢٩ــ ١٣٠) ، وأحمد بن حنبل (١/ ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١٩)عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه مرفوعاًبلفظ : « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . اللهم ! أنت الملك لا إله إلاّ أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلاّ أنت ، لبيك وسعديك والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك . . .»الحديث والسياق لمسلم .

[القدر بين المنكرين والمغالين]

وهذا الموضع ضلّ فيه فريقان من الناس الخائضين في القدر بالباطل :

فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون ؛ لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح ، وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .

وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله ، ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة ، بل قالت : إذا كان يخلق هذا ، فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة ، وما ثم فعل تنزه عنه ، بل كان ما كان ممكناً جاز أن يفعله . وجوَّزوا أن يأمر بكل كفر ومعصية ، وينهي عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل ، وأن يعذِّب الأنبياء ، وينعِّم الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك ، ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول .

قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ [الجاثية : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ﴾ [القلم : ٣٥ — ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [صٓ : ٢٨].

ونحو ذلك ، يوجب أن يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء . وأن من جوز عليه التسوية بينهما ؛ فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

* * *

[الحكمة فى تعذيب الحيوان]

الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً :

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان ، لا يكون فيه حكمة ، بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة ، يكون شراً كلياً عاماً ، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً ومصلحة للعباد : كالمطر العام ، وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التي أيَّد بها أنبياءه الصادقين ؛ فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وليس هذا كالملك الظالم والعدو ؛ فإن الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه . وقد قيل : « ستون سنة بإمامٍ ظالم ، خير من ليلة واحدة بلا إمام » .

وإذا قدر كثرة ظلمه ، فذاك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ،

ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول ـــ أي يدعي ـــ أنه نبي ، فلو أيده الله تأييد الصادق ، للزم أن يسوّي بينه وبين الصادق . فيستوي الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار ، ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا مما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبي ﷺ بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم والخروج عليهم ؛ ولهذا قد يمكِّن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبئون الكذابون ، فلا يطيل تمكينهم ، بل لا بد أن يهلكهم ؛ لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـــ ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ [الشورى : ٢٤] .

فأخبر أنه بتقدير الإفتراء لا بد أن يعاقب مَنْ افترى عليه .

* * *



فصــل

الفرق بين الشر الخاص والعام

وهذاالموضع مما اضطرب فيه الناس ، فاستدلت القدرية النفاة والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً ، جاز أن يضل كل الناس . وإذا جاز أن يعذّب حيواناً بلا ذنب ولا عوض ، جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره ، جاز أن لا يعين كل الخلق .

فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام ، وبين الشر الإضافي والشر المطلق . ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال فإنا لو جوزنا عليه هذا ، لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء ، وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص . وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو يفعل ما يفعل ــ بالخبر ، خبر الأنبياء عنه . وإلا فمهما قدر ، جاز أن يفعله ، جاز أن لايفعله . ليس في نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضي التخصيص ببعض الأفعال دون

بعض ، بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها إلى جميع الحوادث سواء ، ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز ، فلا يبقى المعجز دليلا على صدق الأنبياء. فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق . فليزم ــ مع الكفر بالأنبياء ــ أن لا يعلم الفرق ، لا يسمع ولا يعقل .

* * *

[المعجـزات]

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها ، بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز البارىء تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب ، أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار ، كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع ، وبين خطأ الطائفتين ، وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً في الجبر ، ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التى بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها ، هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة ، مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

* * *

فصــل

[هل الشر يُضَاف إلى الله] ؟

والمقصود هنا ، الكلام على قوله :
وأن هذا يقتضي أن العبد لا يزال شاكراً مستغفراً .

وقد ذكر أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة . وقد تضمنت الفاتحة الأقسام الثلاثة ؛ هو سبحانه الرحمن الذين وسعت رحمته كل شيء .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها »[1] .

وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه[2] ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

---

(١) صحيـــح .
أخرجه البخارى (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ : '' قدم النبى ﷺ سبي . فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها وتسقي إذا وجدت صبيا من السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي ﷺ : « أترون هذه طارحة ولدها في النار » قلنا : لا وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال :« الله أرحم بعباده من هذه بولدها » .

(٢) صحيـــح .
رواه البخارى (٣١٩٤) (٧٤٠٤) (٧٤٢٢) (٧٤٥٣) (٧٥٤٤).
=

فإرادته أصل كل خير ونعمه ، وكل خير ونعمه فمنه ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : ٥٣]

وقد قال سبحانه : ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ [الحجر : ٤٩]

ثم قال : ﴿ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ .
[الحجر : ٥٠]

وقال تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ . [المائدة : ٩٨]

فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه ؛ فهي من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب فمن مخلوقاته ، الذي خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة ؛ فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة فمن الله . وما أصابه من سيئة فمن نفسه .

= (٧٥٥٣) ، ومسلم (٢٧٥١) ، والترمذي (٣٥٤٣) ، وقال عنه : حسن صحيح غريب ، وابن ماجه (٨٩) ، (٤٢٩٥) ، وأحمد (٢ / ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٣٣ ، ٤٦٦) من حديث أبي هريرة مرفوعا بلفظ « لما قضى [خلق] الله الخلق ، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى. »

[مخاطبة الرسول في القرآن]

وقوله : ﴿ وما أصابك ﴾ ، إما أن تكون كاف الخطاب له ﷺ ــ كما قال ابن عباس وغيره ــ وهو الأظهر ؛ لقوله بعد ذلك : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ [النساء : ٧٩] .

وإما أن تكون لكل واحد من الآدميين ، كقوله : ﴿ ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ [الإنفطار ٦] . لكن هذا ضعيف ؛ فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه . وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه . فلو أريد ذكرهم لقيل : « ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ؛ لأنه سيد ولد آدم . وإذا كان هذا حكمه كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى .. كما في مثل قوله : ﴿ اتَّقِ الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : ١] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر ٦٥] .

وقوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فأسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ [يونس : ٩٤] .

ثم هذا الخطاب نوعان :

نوع يختص لفظه به ، لكن يتناول غيره بطريق الأولى .

كقوله : ﴿ يأأيها النبي لاتحرم مأأحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ [التحريم : ١] .

ثم قال : ﴿ وقد فرض الله لكم تحلة ايمانكم ﴾ [التحريم : ٢] .

ونوع : قد يكون خطابه به خطابا لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين : الخطاب له ، والمراد غيره .

وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك ، بل هو المقدم . فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشري ، وإن كان هو لا يقع منه ما نهى عنه ، ولا يترك ما أمر به ، بل هذا يقع من غيره ، كما يقول ولي الأمر للأمير : سافر غداً إلى المكان الفلاني ، أي أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهي أعز من عنده عن شيء ، فيكون نهياً لمن دونه ــ وهذا معروف من الخطاب .

فقوله : ﴿ مأأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾الخطاب له ﷺ ، وجميع الخلق داخلون في هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . بخلاف قوله : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ ، فإن هذا له خاصة ، ولكن مَنْ يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب .. كما قال ﷺ : « بلّغوا عني ولو آية »[1] .

---

(١) صحيـــح متواتـــر .
أخرجه البخارى (٣٤٦١) ، والترمذى (٢٦٦٩) ، وقال حسن صحيح ، والدرامي فى '' المقدمة '' (١ / ١٣٦) ، وأحمد

وقال :« نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه »[1] .

(٣ / ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٤) وابن حبان في '' صحيحه '' (٨ / ٥١) بلفظ ، عن عبدالله بن عمرو ، أن النبي ﷺ ، قال : '' بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار '' .

(١) **صحيح** .

أخرجه الترمذي (٢٦٥٦) ، وأبو داود (٣٦٦٠) وأحمد (٥ / ١٨٣) ، والدارمي (١ / ٧٥) ، وابن حبان (٢ / ٣٥) ولكنه قال : '' رحم الله '' بدل '' نضر الله '' ، وابن ماجه (٢٣٠) ، عن زيد بن ثابت بلفظ : '' نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه غيره فَرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه . ورب حامل فقه ليس بفقيه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم . إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، ومن كانتِ الدنيا نيته مزق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتبَ له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة .

ورواه الترمذي (٢٦٥٧) (٢٦٥٨) ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (٢٣٢) ، وأحمد (١ / ٤٣٧) ، وابن حبان (١ / ١٤٣ — ١٤٤) ، عن ابن مسعود بلفظ : '' نضر الله امرءاً سمع منا شيئا فبلغه كما سمع فَرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع '' .

وأخرجه ابن ماجه (٢٣٦) ، وأحمد (٣ / ٢٥٥) ، عن أنس بن مالك بلفظ : '' نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها عني فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه '' .

ورواه ابن ماجه (٣٠٥٦) ، وأحمد (٤ / ٨٠ ، ٨٢) ،

وقال : « ليبلغ الشاهد الغائب » [1] .

عن جبير بن مطعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس بالخيف . . . فذكره .

وذكره الكتاني في : « نظم المتناثر (ص ٣٣) وذكر أنه رواه عن النبي ﷺ سته عشر صحابيا وذكرهم .

(١) صحيـــح .

رواه البخارى

(٦٧) (١٠٥) (١٧٤١) (٤٤٠٦) (٥٥٥٠) (٧٠٧٨) (٧٤٤٧) ، مسلم (١٦٧٩) ، ابن ماجه (٢٣٣) ، الدرامي(١ / ٦٧ — ٦٨) ، أحمد (٥ / ٣٧ ،٣٩ ،٤٠ — ٤١ — ٤١ ، ٤٥ ، ٤٩ ،٧٢) عن أبى بكرة بلفظ :

قال النبى ﷺ . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة إثنا عشر شهراً منها أربعة حرم . ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب شهر مضر الذى بين حمادى وشعبان . تم قال : أي شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه . قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا بلى ، قال فأيّ بلد هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال : فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه . فال : اليس البلدة ؟ قلنا بلى . قال : فأيّ يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر ؟ قلنا بلى : يا رسول الله قال فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم فلا ترحعونّ بعدي كفّاراً « أو ضلالاً » يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من

وقال : « إن العلماء ورثة الأنبياء »[1] .

وقد قال تعالى في القرآن : ﴿ وأُوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

بعض من سمعه . والسياق لمسلم .

ورواه مسلم (١٣٥٤) ، الترمذى (٧٠٩) ، النسائى (٥ / ٢٠٥ – ٢٠٦) ، أحمد (٤ / ٣١ ، ٣٢) عن أبى شريح العدوي بلفظ أنه « عن أبى شريح العدوي ؛ قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة . ائذن لى . أيها الأمير ! أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح . سَمِعتْهُ أذناى ووعاه قلبي . وأبصرته عيناي حين تكلم به . أنه حمدالله وأثنى عليه ثم قال . إن مكه حرمها الله ولم يحرمها الناس . فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجره فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم . وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب » والسياق لمسلم .

(١) **صحيـــح** .

أخرجه أبو داود (٣٦٤١) ، الترمذى (٢٦٨٢) ، ابن ماجه (٢٢٣) ابن حبان (١ / ١٥٢) عن أبى الدرداء رضى الله عنه بلفظ « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم . وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر » والسياق لأبى داود .

[أفعال الله الحسنة]

الله تعالى لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط :

والمقصود هنا أن « الحسنة » مضافة إليه سبحانه من كل وجه ، و « السيئة » مضافة إليه ؛ لأنه خلقها كما خلق « الحسنة » ؛ فلهذا قال : ﴿ كل من عند الله ﴾ .

ثم إنه إنما خلقها لحكمة ، ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمة ؛ فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها ؛ فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسنا ، ولا يفعل قبيحاً ولا سَيِّئاً قط .

وقد دخل في هذا سيئات الجزاء والعمل ، لأن المراد بقوله : ﴿ ما أصابك من حسنة ــ ومن سيئة ﴾ النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه ، لأنه أذنب ، فالذنب من نفسه بطريق الأَوْلى . فالسيئات من نفسه بلا ريب . وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله : ﴿ كل من عند الله ﴾ كما تقدم ؛ لأنها لا تضاف إلى الله مفردة ، بل إما في العموم ، كقوله : ﴿ كل من عند الله ﴾ .

وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر ، لاتذكر إلا مقرونة ، كقولنا : « الضار النافع ، المعطي المانع ، المعز المذل » . أو

مقيدة ، كقوله : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ [السجدة٢٢] .

وكل ما خلقه ـــ مما فيه شر جزئي إضافي ـــ فقيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك . مثل : إرسال موسى إلى فرعون ؛ فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه ، وذلك شر بالإضافة إليهم ، ولكن حصل به من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون ما هو إلّا خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به .. كما قال تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فاغرقناهم أجميعن فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾ [الزخرف : ٥٥ ـــ ٥٦] . وقال تعالى بعد ذكر قصته : ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات :٢٦] .

وكذلك محمد ﷺ شَقِيَ برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب ، وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه ، ولكن سَعِدَ بها أضعاف أضعاف هؤلاء . ولذلك من شقي به من أهل الكتاب كانوا مبدِّلين محرِّفين قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ ؛ فأهلك الله بالجهاد طائفة ، واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك . والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم ؛ لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم . ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا

يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدي منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .

فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافي ؛ لما في ذلك من الخير والحكمة أيضاً ؛ إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شرّ محض أصلا ، بل هو شر بالإضافة .

* * *

فصــل

الحسنات أمور وجودية

الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها ، كلها أمور وجودية ، أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه . ليس في الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلى الله ، بل كلها أمر وجودي . وكل موجود حادث ، فالله هوالذي يحدثه .

وذلك أن الحسنات ، إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه . والترك أمر وجودي ؛ فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هوته ، واشتهته وطلبته .. كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات ، كالعدل والصدق ـــ حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محباً لها بنِيَّة وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه ، وطاعة لله ولرسوله . ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . .

قال تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينَّه في قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾ [الحجرات : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأى ﴾ [النازعات : ٤٠ — ٤١]

وقال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وفي الصحيحين : عن أنس ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « ثلاث مَنْ كن فيه وجد حلاوة الإيمان : مَنْ كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر — بعد إذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يلقى في النار »[1] .

وفي السنن : عن البراء بن عازب ، عن النبي ﷺ : « أوثق عرى الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله »[2] .

---

(١) **صحيح** .

أخرجه البحارى (١٦) (٢١) (٦٠٤١) (٦٩٤١) ، مسلم (٤٣) ، النسائى (٨ / ٩٦) ، ابن ماجه (٤٠٣٣) ، أحمد (٣ / ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٣٢٠ ، ٢٤٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٨) عن أنس رضى الله عنه .

(٢) **حسن بشواهده** .

أخرجه أحمد بن حنبل (٤ / ٢٨٦) ، إبن أبى شيبه فى « الإيمان » (١١٠) من رواية ليث بن أبى سليم عن البراء بن عازب به مرفوعا .

قلت : وليث بن أبى سليم ضعيف .

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في

وفيها : عن أبي إمامة ، عن النبي ﷺ : « مَنْ أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ؛ فقد استكمل الإيمان »[1] .

- « الكبير » (١١٥٣٧) من طريق حنش عن عكرمه عن ابن عباس قال « قال رسول الله ﷺ لأبي ذر « أى عرى الأيمان أوثق ؟ قال : الله أعلم ! قال : الموالاة فى الله والمعاداة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله » .

قلت : وهذا سند ضعيف « حنش الرحبى هو حسين بن قيس الرحبى أبو علي الواسطي لقبه حنش وهو متروك الحديث .

وللحديث شاهد آخر من حديث ابن مسعود أخرجه الطبرانى والطيالسي (٣٧٨) والحاكم فى « المستدرك » (٢ / ٤٨٠) ، وقال : صحيح . وتعقبه الذهبى بقوله : ليس بصحيح فإن الصعق بن حزن وإن كان موثقاً فإن شيخه منكر الحديث قاله البخارى '' .

قلت : والحديث يشهد له ما بعده .

(١) **صحيح بشواهده**

أخرجه أبو داود (٤٦٨١) من طريق يحي بن الحارث عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامه به مرفوعاً .

قلت : وهذا إسناد حسن رجاله ثقات إلا أن القاسم بن عبد الرحمن وهو أبو عبد الرحمن الدمشقي قال عنه الحافظ فى « التقريب » : صدوق .

وللحديث شاهد من حديث معاذ بن أنس الجهني رواه الترمذي (٢٥٢١) ، أحمد (٣ / ٤٤٠ ، ٣٣٨) بلفظ « إن رسول الله ﷺ قال من أعطى لله وضع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل الإيمان » .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

وفي الصحيح : عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال : « من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[١]
وفي الصحيح : من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ــ لما ذكر الخلوف قال : « من جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[٢] .

---

(١) **صحيــــح** .

أحرجه مسلم (٤٩) ، الترمذى (٢١٧٢) ، النسائى (٨ / ١١١ ــ ١١٢) ، أبو داود (١١٤٠) (٤٣٤٠) ، ابن ماجه (١٢٧٥) (٤٠١٣) ، أحمد بن حنبل (٣ / ١٠ ، ٢٠ ، ٤٩) وابن حبان (١ / ٢٦٢) عن أبى سعيد الخدري بلفظ « عن أبى سعيد الخدري قال أول من بدأ الخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة . فقال : قد ترك ما هنالك فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكراً . . .فذكر الحديث .

وقال النرمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) **صحيــــح** .

أحرجه مسلم (٥٠) ، أحمد بن حنبل (١ / ٤٥٨ ، ٤٦١) عن عبدالله بن مسعود بلفظ « ما من نبي بعثه الله فى أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف . يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وقد قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرَءؤُا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وَبَدَا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك * وماأملك من الله من شيء ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال على لسان الخليل : ﴿ إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ [الزخرف ٢٦ ـــ ٢٧] .

وقال : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ [الشعراء : ٧٥ ـــ ٧٧]

وقال : ﴿ فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون إني وجهت للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام ٧٨ ـــ ٧٩] .

فهذا البغض والعداوة ، والبراءة مما يُعبد من دون الله ، ومن عابديه هي أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حبّ الله وموالاته وموالاة أوليائه أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح وهي تحقيق قول : « لا إله إلا الله » ، وهو إثبات تأليه القلب حباً خالصاً وذلا صادقا . ومنع تأليهه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته ، فلا يُعبد إلا الله . ويجب أن يعبده ويبغض عبادة غيره . ويحب التوكل عليه وخشيته ودعاءه ، ويبغض المتوكل على غيره وخشيته ودعاءه .

فهذه كلها أمور موجودة في القلب ، وهي الحسنات التي يثيب الله عليها .

وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التي لا يحبها ولا يبغضها ، فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات ، ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها ، فكأنه لم يفعلها . فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والمجنون والبهيمة ، لا ثواب ولا عقاب .

ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها ، فإن لم يعتقد تحريمها ويكرهها ، وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

* * *

فصـــل

الترك : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟

وقد تنازع الناس في الترك : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والأكثرون على أنه وجودي .

وقالت طائفة ، كأبي هاشم بن الجبائي : إنه عدمي ، وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على تركٍ يقوم بنفسه ، ويسمونه « الذَّمية » ؛ لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض .

والأكثرون **يقولون** : الترك أمر وجودي ، فلا يثاب من ترك محظور إلا على **ترك يموم بنفسه . وتارك الأمور** ، إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه ، وهو أن يأمره الرسول ﷺ بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودي .

ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره ، فيعاقب على ذلك .

الإنسان :[إما عابد لله أو عابد للشيطان]

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلا بد أنه يكون عابداً لِغيره ، يعبد غيره فيكون مشركا . وليس في بني آدم قسم ثالث ، بل إما موحِّد ، أو مشرك ، أو من خلط هذا بهذا ، كالمبدلين من أهل الملل .. النصارى ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام . .

قال الله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ [النحل ٩٨ — ١٠٠] .

وقد قال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] .

فإبليس لا يغوي المخلصين ، ولا سلطان له عليهم ، إنما سلطانه على الغاوين ، وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله : ﴿ الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ [النحل ١٠٠] . صفتان لموصوف واحد ، فكل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

وقال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ [يس ٦٠ — ٦١] .

وكل من عبد غير الله ، فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء. .

وقال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبد ون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [سبأ ٤٠ — ٤١] .

ولهذا يتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويخاطبونهم فيظنون أن الذي خاطبهم ملك أو نبي أو ولي . وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكا من الملائكة ، كما يصيب عُبّاد الكواكب ، وأصحاب العزائم والطلسمات ، يسمون أسماء ، يقولون : هي أسماء الملائكة ، مثل ميططرون وغيره ، وإنما هي أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء والأولياء والملائكة ، قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ؛ فيظنه النبي ، أو الصالح الذي دعاه . وإنما هو شيطان تصور في صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا كثير يجزي لمن يدعو المخلوقين .. من النصارى ، ومن المنتسبين إلى الإسلام ، يدعونهم عند قبورهم أو مغيبهم ، ويستغيثون بهم . فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث به في صورة آدمي راكباً ، وإما غير راكب ؛ فيعتقد المغيث أنه ذلك النبي والصالح ، أو أنه سِرّه أو روحانيته ، أو رقيقته أو المعنى تشكل ، أو يقول : إنه ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان يغويه ؛ لكونه أشرك بالله ، ودعا غيره الميت من دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن أنه يدعو النبي ، أو الصالح ، أو الملك ، وأنه هو الذي شفع له ، أو هو الذي أجاب دعوته ، وإنما هو الشيطان ، ليزيده غلوا في كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ؛ فلا بد أن يكون مشركا عابداً لغير الله . وهو في الحقيقة عابد للشيطان .

فكل واحد من بني آدم : إما عابد للرحمن ، وإما عابد للشيطان. .

قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمٰن نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين * إنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذا ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ [الزخرف ٣٦ — ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾ [الحج ١٧] .

* * *

فصل

الثواب والعقاب على العمل الوجودي

والمقصود هنا .. أن الثواب والعقاب ، إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات ، كعبادة الله وحده ؛ وترك السيئات ، كترك الشرك ، أمر وجودي .

وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله ، أمر وجودي .

قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ [القصص ٨٤] .

وقال تعالى :﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ [الإسراء ٧] .

وقال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ [فصلت ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة .. إلى قوله .. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾
[يونس ٢٦ — ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ [الروم ١٠] .

فأما عدم الحسنات والسيئات ، فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .

وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملا ، وبقي مدة لا يفعل كثيراً من المحرمات ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها .. مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم لخنزير ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف ، حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه ـــ فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها ؛ لأنه لم يسمع ذلك ؛ فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم ، فاعتقده ؛ أثيب على اعتقاده . وإذا ترك ذلك ، مع دعاء النفس إليه ، أثيب ثواباً آخر ، كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها ، كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها . فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التي ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا ، فالحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى ، وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات ؛ فهو الذي حَبَّبَ الإيمان إلى المؤمنين ، وزَيَّنَهُ في قلوبهم ، وكَرَّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

* * *

فصـــل

السيئات : منشؤها الجهل والهوى

وأما السيئات ، فمنشؤها الجهل والظلم ؛ فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها . ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبُغض نفسه لها .

وفي الحقيقة ، فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو كان عالماً علماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ، لم يفعله ؛ فإن هذا خاصية العاقل . ولهذا إذا كان من السيئات ما يعلم أنه يضره ضرراً راجحاً : كالسقوط من مكان عال ، أو في نهر يغرقه ، أو المرور بجنب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمى ماله في البحر ونحو ذلك ، لم يفعله ؛ لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه . ومن لم يعلم أنه هذا يضره : كالصبي ، والمجنون ، والساهي ، والغافل ، فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره ، مع علمه من الضرر عليه ، فلظنه أن منفعته راجحة . فإما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح ؛ فلا بد من رجحان الخير ، إما في الظن ، وإما في المظنون .. كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح ؛ فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر ، لما سافر . لكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن .

وكذلك الذنوب ، إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق . وكذك الزاني ، إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن . والشارب يختلف حاله ، فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك ؛ ولهذا كان الصحيح أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهي إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك .. كما جاءت بذلك الأحاديث ، كما هو مذكور في غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح ، لم يفعله . بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته ، بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله . ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً ؛ فيبقى غافلاً ، غير مستحضر للتحريم . والغفلة من أضداد العلم .

* * *

فصـل

الغفلة والشهوة أصل الشر

فالغفلة والشهوة أصل الشر .. قال تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ [الكهف ٢٨] . والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً ، إنصرفت نفسه عنه بالطبع ؛ فإن الله تعالى جعل في النفس حُباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها ؛ فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحا . بل متى فعلته كان لضعف العقل . ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نُهَى ، وذو حجى .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان ، لا من مجرد النفس ؛ فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن ، التي هي منافع لا مضار .. كما فعل إبليس بآدم وحواء ، فقال :
﴿ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ﴾ [طه ١٢٠ — ١٢١] .
﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ [الأعراف ٢٠] .

لهذا قال الله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [الزخرف ٣٦ — ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ [فاطر ٨] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم وكذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعلمون ﴾ [الأنعام ١٠٨] .

وقوله : ﴿ زينا لكل أمة عملهم ﴾ ، هو بتوسيط تزيين الملائكة والأنبياء والمؤمنين للخير ، وتزيين شياطين الجن والإنس للشر .. قال تعالى : ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ [الأنعام١٣٧] .

* * *

[العلم خشية الله]

إنما يخشى الله من عباده العلماء :

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ؛ أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم : « كلّ من عصى الله ، فهو جاهل » ، وفسرو بذلك قوله تعالى :
﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ [النساء ١٧] .

وقوله : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقل سلام عليكم

كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ﴾ . [الأنعام : ٥٤]

ولهذا يسمى حال فعل السيئات « الجاهلية » ، فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ [النساء ١٧] . فقالوا « كل من عصى الله ، فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت ، فقد تاب من قريب » .

وعن قتادة قال : أجمع أصحاب محمد رسول الله ﷺ على أن كل من عصى ربه فهو في جهالة ، عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل . وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً ، من شيخ . أو شاب ، فهو بجهالة .

وقال : من عصى ربه فهو جاهل ، حتى ينزع عن معصيته .

وقال أيضاً : هو إعطاء الجهل العمد .

وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأ ، أو إثماً عمداً ؛ فهو جاهل ، حتى ينزع منه . رواهن ابن أبي حاتم . ثم قال :

روي عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثوري ، ونحو ذلك خطأ ، أو عمداً .

وروي عن مجاهد والضحاك ، قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ، ولكن من جهالته حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصري : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم . قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها ؛ فإنها جهالة .

قلت : ومما يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر ٢٨] . وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته ، فهو عالم .. كما قال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [الزمر ٩] .

وقال رجل للشعبي : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله .

وقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر ٢٨] ، يقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم ، فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضي ، أيضاً ، أن العالم من يخشى الله ، كما قال السلف .

قال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلا .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين : حصر الأول في الثاني ، وهو مطرد ، وحصر الثاني في الأول ، نحو قوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ [يٓس ١١] .

وقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾.
[النازعات ٤٥]

وقوله : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون تتجافى جنوبهم المضاجع ﴾ . [السجده ١٥ ــ ١٦] .

ومن ذلك .. أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم . وهذا كالإستثناء ؛ فإن من النفي إثبات ، عند جمهور العلماء . .

كقولنا : « لا إله إلا الله » .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ .
[الأنبياء ٢٨]

وقوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .
[سبأ ٢٣]

وقوله : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ .

[الفرقان ٣٣]

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه ، لم يثبت له ما ذكر ، ولم ينفه عنه . وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى ؛ فيقولون : نفى الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

والصواب : قول الجمهور ، أن هذا كقوله : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ﴾ [الأعراف ٣٣] ؛فإنه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لكن أثبتها للجنس ، أو لكل واحد .. كما يقال : إنما يحج المسلمون . ولا يحج إلا مسلم .

وذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط ؟

ففي هذه الآية وأمثالها ، هو مقتض ، فهو عام ؛ فإن العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف . فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات وترك السيئات . وكل عاص فهو جاهل ، ليس بتام العلم ، يبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم . وإذا كان ذلك ، فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً ، بل هو مثل عدم القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

والعدم لا فاعل له ، وليس هو شيئاً ، وإنما الشيء الموجود . والله تعالى خالق كل شيء ، فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله ، لكن قد يقترن به ما هو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوه إلى الحسنات ، وترك السيئات .

والنفس بطبعها متحولة ؛ فإنها حية ، والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء : حارث ، وهمام »[1] ، فكل

---

(١) ضعيـــف بهذا السياق .

أخرجه أحمد بن حنبل (٤ / ٣٤٥) ، أبو داود (٤٩٥٠) عن عقيل بن شبيب عن ابن وهب الجشمي قال « قال رسول الله ﷺ « تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عبدالله وعبد الرحمن ، وأصدقها الحارث وهمام وأقبحها حرب ومرة » .

قلت : وهذا إسناد ضعيف لأجل عقيل بن شبيب قال الحافظ فى « التقريب » مجهول .

تنبيه : ذكر المصنف رحمه الله أن الحديث فى الصحيح والذي فى الصحيح هو حديث ابن عمر أخرجه مسلم (٢١٣٢) ، البيهقي (٩ / ٣٠٦) ، أبو داود (٤٩٤٩) ، الدرامي (٢ / ٢٩٤) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) ، أحمد (٢ / ٢٤) بلفظ '' أن أحب أسمائكم إلى الله عبدالله وعبد الرحمن '' ولكن الزيادة وأصدقها . . .إلى آخره ليست فى الصحيح وإنما فى الحديث الضعيف الذى ذكرناه آنفا .

وقد ذكر المصنف هذا الحديث فى « مجموع الفتاوي » فى مواطن كثيرة وعزاه للصحيح كما فعل هنا . فوجب التنبيه .

آدمي حارث وهمام ، أي عامل كاسب ، وهو همام ، أي يهم ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء في الحديث : « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة ، وَلَلْقلب أشد تقلباً من القِدر إذا استجمعت غلياناً »[1] .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم الحياة ذاتها ، فإذا هداها الله ، علمها ما ينفعها وما يضرها ؛ فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

* * *

- وهذا الحديث بهذه الزيادة مما اختلف فيه العلماء بالتحسين والتضعيف والذى يطمئن إليه القلب أنه ضعيف بهذه الزيادة .

(١) **صحيـــح** .

أخرجه أحمد (٤ / ٤٠٨ ، ٤١٩) بإسناديين صحيحين والبغوى فى « شرح السنة » (١ / ١٦٤) ، ابن أبي عاصم فى « السنه » (٢٢٧) (٢٢٨) ، ابن ماجه (٨٨) عن أبي موسي الأشعري مرفوعا بلفظ « مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن » .

صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

فصـــل

فضل الله على بني آدم

[الفطرة ـــ الهداية]

والله سبحانه وتعالى ، قد تفضل على بني آدم بأمرين ، هما أصل السعادة .

أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة .. كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ »[(١)] ، ثم يقول أبو هريرة : أقرءوا إن شئتم : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ .. قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله

---

(١) صحيـــح .

أخرجه البخاري (١٣٥٨) (١٣٥٩) (٦٥٩٩) ، مسلم (٢٦٥٨) ، ابن حبان (١ / ١٧٠) ، أحمد (٢ / ٢٧٥) بنفسى لفظ المصنف عن أبى هريرة .

وأخرجـــه البخـــاري (١٣٨٥) (٦٥٩٩) ، مسلـــم (٢٦٥٨) ، أبو داود(٤٧١٤) والترمذي (٢١٣٨) ، أحمد (٢ / ٢٣٣ ، ٣٩٣ ، ٤١٠ ، ٤٨١) ، الطيـــــــالسي (٢٣٥٩) (٢٤٣٣) ، ابن حبان (١ / ١٦٩) عن أبي هريرة بألفاظ متقاربة .

وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ .
[الروم : ٣٠]

وفي صحيح مسلم : عن عياض بن حمار ، عن النبي ﷺ ، قال : « يقول الله تعالى : خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً »[1] .

---

(١) صحيح .
أخرجه مسلم (٢٨٦٥) ، أحمد (٤ / ١٦٢) عن عياض بن حمار المجاشعي . أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ومما علمني يومي هذا أنّ كل مال نحلته عبداً حلال . وإني خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماءِ . تقرؤه نائماً ويقظان . وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً فقلت : رب ! إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خُبزه قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فستنفق عليك ِجيشاً نبعث خمساً مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، قال : وأهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ، ومسلم عفيف متعفف ذو عيال . قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون أهلاً ولا مالاً ، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلّاخانهُ ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك »

فالنفس بفطرتها ، إذا تركت ، كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة له ، تعبده لا تشرك به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن ، بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل . .

قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ . [الأعراف ١٧٢ — ١٧٣]

وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع .

الثاني : أن الله تعالى ، قد هدى الناس هداية عامة ، بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . .

قال تعالى : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم ﴾ . [العلق ١ — ٥]

وقال تعالى : ﴿ الرحمٰن علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان ﴾ . [الرحمن ١ — ٣]

وقال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدّر فهدى ﴾ . [الأعلى : ١ — ٣]

وقال تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ . [البلد ١٠]

ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق ومحبته له ، وقد هداه ربّه إلى أنواع من العلم ، ويمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة . وجعل في فطرته محبة لذلك . لكن قد يُعرض الإنسان ، بجاهليته وغفلته عن طلب علم ما ينفعه . وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريده ، أمر عدمي ، ولا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

* * *

[طبيعة النفس]

لكن النفس ـــ كما تقدم ـــ الإرادة والحركة من لوازمها ؛ فإنها حية حياة طبيعية ، لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة . وكان مالها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها ، فلا هي حية متنعمة بالحياة ، ولا هي ميتة مستريحة من العذاب .

قال تعالى : ﴿ فذكِّر إن نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولا يحيى ﴾ . [الأعلى ٩ ـــ ١٣]

فالجزاء من جنس العمل ، لما كان في الدنيا ليس يحيى الحياة النافعة التي خلق لأجلها ، بل كانت حياته من جنس حياة البهائم ، ولم يكن ميتاً عديم الإحساس ، كان في الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة ، هو حصول ما ينتفع به الحي

ويستلذ به ، والحي لا بد له من لذة أو ألم ؛ فإذا لم تحصل له اللذة ، لم يحصل له مقصود الحياة ؛ فإن الألم ليس مقصوداً . كمن هو حي في الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء . فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الإرادة والعمل ؛ إذ هو حارث همام ، فإن عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته ، فذلك من تمام إنعام الله عليها . وإلا فهي بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده . وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل . ومن كونها بطبعها لابد لها من مراد معبود . فعبدت غيره . وهذا هو الشر الذي تعذب عليه ، وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

* * *

[غلط القدرية فى « إرادة الإنسان »]

والقدرية يعترفون بهذا جميعه ، وبأن الله خلق الإنسان مريداً . لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول ، أي قابلا لأن يريد هذا وهذا . أما كونه مريداً لهذا المعين وهذا المعين ، فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله . وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ؛ فإن الله خالق هذا كله . وإرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها ، وهو من جملة مخلوقات الله تعالى ؛ فإن الله

خالق كل شيء ، وهو الذي ألهم النفس ، التي سواها ، فجورها وتقواها .

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه : « اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها ؛ أنت خير من زكاها؛ أنت وليها ومولاها»[1] .

وهو سبحانه ، جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره ، وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً إلى الله تعالى ؛ لوجهين : من جهة علته الغائية ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلية .

* * *

أولاً : من جهة العلة الغائية

أما الغائية ، فإن الله إنما خلقه لحكمة هي باعتبارها خير لا شر ، وإن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً ، توهم المتوهم مذهب جهم : إن الله يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه

(١) **صحيح .**

أخرجه مسلم (٢٧٢٢) ، النسائي (٨ / ٢٦٠) ، أحمد (٤ / ٣٧١) عن زيد بن أرقم بلفظ « ألا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كان يقول اللهم ! إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم آت نفس تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفسٍ لا تشبع ومن دعوةٍ لايستجاب لها » والسياق لمسلم .

لأحد ؛ لا لحكمة ولا رحمة . والأخبار والسنة والإعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون في الأرض ، كان هذا ذماً لهم ، وكان باطلا . وإذا قيل : يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك ، كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم ، أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما صنع ، هو أرحم الراحمين ؛ أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والخير كله بيديه ، والشر ليس إليه ، بل لا يفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة ؛ فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة ، كان هذا حقاً ، وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه ولا منفعة لأحد ، ولا له فيها حكمة ولا رحمة ، ويعذب الناس بلا ذنب ، لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه ؛ بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول ، في بيان فساد قول هؤلاء ، له موضع آخر .

وقد بينا بعض ما في خلق جهنم وإبليس والسيئات ، من الحكمة والرحمة ، وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، ومالك يوم الدين .. الأحد الصمد ؛ الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ؛ الذي لا يحصي العباد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ؛ الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ؛ الذي يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ، ولإحسانه إلى عباده ، سبحانه وتعالى ، يستحق أن يحمد لما له في نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده ، هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقا .

* * *

[كلُّ ماخلقه فهو نعمة للمؤمنين]

وقد ذكرنا ، في غير هذا الموضع ، ما قيل : من أن كل ما خلقه الله ، فهو نعمة على عباده المؤمنين ، يستحق أن يحمدوه ويشكروه عليه ، وهو من آلائه . ولهذا قال في آخر سورة النجم : ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ [النجم : ٥٥] ... وفي سورة الرحمن يذكر : ﴿ كل مَنْ عليها فان ﴾ [الرحمن : ٢٦] ... ونحو ذلك ، ثم يقول عقب ذلك : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ . [الرحمن : ٢٨] .

وقال آخرون ، منهم الزجاج ، وأبو الفرج بن الجوزي : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أي من هذه الأشياء المذكورة ؛ لأنها كلها ينعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته ، وفي رزقه إياكم ما به قوامكم . وهذا قالوه في سورة الرحمن .

وقالوا في قوله : ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ . [النجم : ٥٥] ... فبأي نعم ربك التي تدل على وحدانيته تتشكك ؟ ! وقيل : تشك وتجادل ؟ ! قال ابن عباس : تكذب ؟ !

قلت : قد ضمن « تتمارى » معنى تكذب ؛ ولهذا عداه بالتاء ؛ فإن التماري تفاعل من المراء .. يقال : تمارينا في الهلال . والمراء في القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم ، قال « تتمارى » أي يتمارون ، ولم يقل : تميرك ؛ فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا .

قالوا : الخطاب للإنسان ، قيل : للوليد بن المغيرة ، فإنه قال : ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى أن تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [النجم : ٣٦ ــ ٣٨] ... ثم التفت إليه فقال : « فبأي آلاء ربك تتمارى » [النجم ٥٥] تكذبان .. كما قال : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ . [الرحمن : ١٤ ــ ١٦] .

ففي كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته . فجميع المخلوقات ، فيها إنعام على العباد .. كالثقلين المخاطبين بقوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : ٢٨] ... من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها

هدايتهم وإيمانهم الذي يسعدون به في الدنيا والآخرة ؛ فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التي بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم ، وإهلاك عدوهم ، كما ذكره في سورة النجم : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشّاها ما غشى ﴾ [النجم : ٥٠ ــ ٥٣] ... يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، وما بشروا به وأنذروا به . ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ .. قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن ، فإن الله سمى كلا منهما بشيراً ونذيرا ؛ فقال في رسول الله : ﴿ إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ [الأعراف : ١٨٨] وقال تعالى : ﴿ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ [الفتح : ٤٨] .. وقال تعالى في القرآن : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً ﴾ [فصلت : ٢] .. وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنين مراد .. يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله : ﴿ من النذر ﴾ أي من جنسها .. أي رسول من الرسل المرسلين .

ففي المخلوقات نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والإعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

* * *

[نعمة الإيمان أفضل النعم]

فأفضل النعم .. نعمة الإيمان .

وكل مخلوق من المخلوقات ، فهو الآيات التي يحصل بها مايحصل من هذه النعمة . .

قال تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ [يوسف : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ [ق : ٨] .

* * *

كل ما يفعله الله هو نعمة منه تستوجب الصبر والشكر :

وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره ، فهو نعمة بينة . وإن كان يسوءه ، فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ، ويثاب بالصبر عليه ؛ ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [البقرة ٢١٦] .

وقد قال ﷺ في الحديث « والله لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له »[١] . وإذا كان هذا وهذا ، فكلاهما من نعم الله عليه .

---

(١) **صحيح** .

رواه مسلم (٢٩٩٩) ، الدارمى (٢ / ٣١٨) ، أحمد (٤ /

[الصبر على السرّاء والضرّاء والشكر عليهما]

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر . أما نعمة الضراء ، فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء ، فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها ؛ فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .. كما قال بعض السلف : إبتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر . وفي الحديث : « أعوذ بك من فتنة الفقر ، وشر فتنة الغنى » [(1)] .

---

٣٣٣) ، (٦ / ١٥ ، ١٦) ، ابن حبان (٤ / ٢٤٣) ، الطبرانى فى الكبير (٧٣١٦) ، (٧٣١٧) ، أبو نعيم فى « الحلية » (١ / ١٥٤) عن صهيب رضى الله عنه بلفظ « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » والسياق لمسلم .

وللحديث شاهد من حديث أنس بن مالك أخرجه أحمد (٣ / ١١٧ ، ١٨٤) ، ابن حبان (٢ / ٥٥) ، القضاعى فى « مسند الشهاب (٣٨٧) بلفظ « عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له » .

(١) **صحيح** .

أخرجه البخارى (٦٣٦٨) (٦٢٧٥) (٦٣٧٦) (٦٣٧٧) ، مسلم (٢٥٨٩) ، الترمذى (٣٤٩٥) ، النسائى (٨ / ٢٦٢ ، ٢٦٦) ، ابن ماجه (٣٨٣٨) وقال الترمذى حسن صحيح عن عائشة رضى الله عنها بلفظ « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم والمغرم والمأثم . اللهم إني أعوذ بك

والفقر يصلح عليه خلق كثير ، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين ؛ لأن فتنة الفقر أهون . وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر لكن لما كان في السراء اللذة ، وفي الضراء الألم ، إشتهر ذكر الشكر في السراء ، والصبر في الضراء .

قال تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ [هود : ٩ : ١١] .

ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر ؛ فإن صبر هذا وشكر هذا واجب ، إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء ، فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات ، وقد يكون واجباً . ولكن لإتيانه بالشكر ، الذي هو حسنات ، يغفر له ما يغفر من سيئاته .

من عذاب النار وفتنة النار وفتنة القبر وعذاب القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر ومن شر فتنة المسيح الدجال . اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد ونق قلبى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب » والسياق للبخارى .

وكذلك صاحب الضراء ، لا يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره في الشكر مما يغفر له ؛ لما يأتي به من الصبر ؛ فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً يكون مع تألم النفس وتلذذها . يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الله تعالى منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الإبتداء لأكثر الناس ؛ فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ؛ فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

* * *

[ذنوب الإنسان]

وأما ذنوب الإنسان ، فهي من نفسه . ومع هذا فهي — مع حسن العاقبة — نعمة ، وهي نعمة على غيره بما يحصل بها من الإعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله : « اللهم لا تجعلنيَ عبرة لغيري ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني ». .

وفي دعاء القرآن : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ [يونس : ٨٥] .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ [الممتحنة : ٥] .

كما فيه ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ [الفرقان : ٧٤] ،

أى فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم ، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

* * *

تذكير القرآن بآلاء الله :

و « الآلاء » في اللغة : هي النعم ، وهي تتضمن القدرة .
قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة ــ سورة الرحمن ــ نعماءه ، وذكر عبادة آلاءه ، ونبههم على قدرته ، وجعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ؛ ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم في صحيحه ، والترمذي[1] : عن جابر عن النبي ﷺ قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها . ثم قال : « مالي أراكم سكوتا ؟ لقد كان الجن أحسن منكم رداً ؛ ما قرأت عليهم هذه الأية من مرة ﴿ فبأي آلاء ربكما

---

(١) **حسن** .
أخرجه الترمذي (٣٢٩١) والحاكم فى « المستدرك » (٢ / ٤٧٣) عن جابر رضى الله عنه وفيه الوليد بن مسلم وهو مدلس وقد صرح بالتحديث عند الحاكم . وقال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد .
وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يحرجاه ووافقه الذهبي قلت : وله شاهد من حديث ابن عمر مرفوعاً أخرجه البزار (٢٦٩ كشف الأستار) وفيه عمرو بن مالك الراسبي وهو ضعيف وذكره الهيثمي فى « مجمع الزوائد » (٧ / ١١٧) وقال رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي وثقة ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح .

تكذبان ﴾ إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ؛ فلك الحمد » .

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ، ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده ، ويذكر بأياته المبينة لحكمته تعالى ، وهى كلها متلازمة ، فكل ما خلق فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته . لكن نعمة الرزق ، والإنتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ، ظاهرة لكل أحد ؛ فلهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل ، وتسمى سورة النعم .. كما قاله قتادة وغيره .

* * *

[مقولة في الفرق بين الحمد والشكر]

وعلى هذا ، فكثير من الناس يقول : الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه ؛ فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة . والشكر أعم من جهة أنواعه ؛ فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة ، لم يكن الحمد إلا على نعمة ، والحمد لله على كل حال ، لأنه ما من حال يقتضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف ما في المخلوقات من النعم ، والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا .

وكذلك كل ما يخلقه ، ففيه له حكمة ؛ فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة . والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه ، بل ما ثَمَّ إلا نفع الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدره .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذي يفعل مالا ينتفع به ولا ينفع به أَحداً ؛ فهذا لا يحمد .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جَهم : أنه لا يستحق الحمد ؛ فله عندهم ملك بلا حمد ، مع تقصيرهم في معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام ؛ إذ كان عندهم يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء ، وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامَّين ، وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : ١٨] .

فله الوحدانية في إلهيته ، وله العدل ، وله العزة والحكمة وهذه الأربعة ، إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة ، فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمي الجبري لا يثبت عدلا ولا حكمة ، ولا توحيد إلهية ، بل توحيد ربوبيته .

والمعتزلي أيضاً لا يثبت في الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلا في الحسنات والسيئات ، ولا عزة ولا حكمة في الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها ليس بحكيم ، بل سفيه .

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت أنه رأس الشكر ، فهو أول الشكر ، والحمد ، وإن كان على نعمته وعلى حكمته ، فالشكر بالأعمال هو على نعمته ، وهو عبادة له ، لإلهيته التي تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور داخلا في الشكر .

ولهذا عظَّم القرآن أم الشكر ، ولم يعظِّم أمر الحمد مجرداً ؛ إذ كان نوعاً من الشكر .

وشرَّع الحمد ــ الذي هو الشكر المقول ــ أمام كل خطاب مع التوحيد .

ففي الفاتحة الشكر والتوحيد . والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد . والباقيات الصالحات نوعان : « فسبحان الله وبحمده » فيها الشكر والتنزيه والتعظيم . « لا إله إلا الله والله أكبر » فيها التوحيد والتكبير .

وقال قال تعالى : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ﴾ [غافر : ٦٥] .

* * *

[قضاء السيئات]

وهل الحمد على كل مايحمد به الممدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أولا يكون الحمد إلا على الأمور الإختيارية . كما قيل في الذم ؟

فيه نظر ليس هذا موضعه .

وفي الصحيح : « **إن النبي** ﷺ كان إذا رفع رأسه من الكوع يقول : ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ماشئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ماقال العبد ــ وكلنا لك عبد ــ لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[1] . هذا لفظ الحديث « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ؛ فقالوا : « حق ماقال العبد » .

---

(١) **صحيح** .

أخرجه مسلم (٤٧٨) ، النسائي (٢ / ١٩٨) عن ابن عباس ورواه النسائي (٢ / ١٩٨ ، ١٩٩) ، الدارمي (١ / ٣٠١) ، أحمد بن حنبل (٣ / ٨٧) عن أبي سعيد رضى الله عنه .

ورواه أحمد (٤ / ٢٨٥) عن البراء بن عازب .

وهذا ليس لفظ الرسول ، وليس هو بقول سديد ؛ فإن العبد يقول الحق والباطل . بل حق ما يقوله الرب . كما قال تعالى : ﴿ فالحق والحق أقول ﴾ [صٓ : ٨٤] .

ولكن لفظه « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف ، أي الحمد أحق ماقال العبد ، أو هذا ، وهو الحمد ، أحق ماقال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ماقاله العباد ، ولهذا أوجب قوله في كل صلاة ، وأن تفتتح به الفاتحة ، وأوجب قوله في كل خطبة ، وفي كل أمر ذي بال .

والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ؛ كما أن الذم يكون على مساوئه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه .

وأما إذا قيل : بل يخلق ما هو شر محض ، لا نفع فيه ، ولا رحمة ولا حكمة لأحد . وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلا على مثل . لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان إلى الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده . وهو ، مع هذا ، يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة ، ونحو ذلك مما يقوله الجهمية ـــ

لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمده ، بل هو موجب للعكس . ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن ، ويذكرون ذلك نظماً ونثراً . وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم مَنْ يذكر في كلامه ما يقتضي هذا . ومن لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء به ، لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين . وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله ، ويجعلون الرب ظالماً لهم ، وهو خلاف ما وصف الله به نفسه في قوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ [الزخرف : ٧٦] .

وقوله : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾
[هود : ١٠١]

وقوله : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت : ٤٦] .

كيف يكون ظالماً ؟ ! وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض ، أو قصر في حقه ، لكان يؤاخذه ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك عدلاً إذا لم يعتد عليه .

ولو قال : إن الذي فعلته قدر عليّ ، فلا ذنب لي فيه لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء . فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدر ؛ فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر ؟ ! .

وهو سبحانه الحكم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما .

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فقوله : « أحق ما قال العبد » يقتضي : أن حمد الله أحق ما قاله العبد ؛ فله الحمد على كل حال ؛ لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذي يستحق الحمد عليه ، سبحانه وتعالى وإن كان العباد لا يعلمون .

* * *

[حكمة خلق الإنسان]

وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابغة .

فإذا قيل : فلم لم يخلقها على غير هذا الوجه ؟

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الإنسان ، وكانت الحكمة التي خلقها بخلق الإنسان لا تحصل .. وهذا سؤال الملائكة ؛ حيث قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ! ﴾ [البقرة : ٣٠] .. ومالم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس ؟ !

ونفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ [المعارج : ١٩-٢١]وقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

فقد خلقت خلقه تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ، ورحمة عميمة ؛ فكان ذلك خيراً ورحمة ؛ وإن كان فيه شر إضافي ، كما تقدم ، فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

ثانياً : من جهة السبب :

وأما الوجه الثاني من جهة السبب ، فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التي تصلح النفس ؛ فإنها خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله ومحبته ، وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله وإحسانه ، لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات من شياطين الإنس والجن مالت إلى ذلك ، وفعلت السيئات . فكان فعلها للسيئات مركباً من عدم علم ما ينفع وهو الأفضل ، ووجود هؤلاء الذين حيروها ، والعدم لا يضاف إلى الله . وهؤلاء ، القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة .

فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح هو أحد السببين ، كان الشر المحض الذي لا خير فيه هو العدم المحض ، والعدم لا يضاف إلى الله ؛ فإنه ليس شيئاً ، والله خالق كل شيء كانت السيئات منها باعتبار أنّ ذاتها في نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التي تحصل منها مع عدم ما يصلحها تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها ، فهو على وجهين :

إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته إلى الله ، وأنه إن لم يهده فهو ضال ، وإن لم يتب عليه فهو مُصِرّ ، وإن لم يغفر له فهو هالك ، وأنه خاضع لعزته وحكمته فهذا العبد حاله حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ، ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعا للأمر والنهي عنه ، وإقامة لعذر نفسه ؛ فهذا ذنب أعظم من الأول ، وهذا من أتباع الشيطان ، ولا يزيده ذلك إلا شراً .

وقد ذكرنا أن الرب سبحانه محمود لنفسه ولإحسانه إلى خلقه ؛ ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه ولإحسانه إلى عباده ، ويستحق أن يرضى العبد بقضائه ؛ لأنّ حكمه عدل ، لا يفعل إلا خيرا وعدلا ؛ ولأنه « لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته سراء شكر ؛ فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له »[1] فالمؤمن يرضى بقضائه ؛ لما يستحقه الرب نفسه من الحمد والثناء ؛ ولأنه محسن إلى المؤمن .

* * *

---

(١) **صحيح** . تقدم تخريجه .

[قضاء السيئات]

وماتسأله طائفة من الناس ، وهو أنه ﷺ قال : « لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » ، وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب ، فكيف يكون ذلك خيراً ؟

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل في الحديث ؛ إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كما في قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : ٧٩] .. ولهذا قال : « إن أصابته سراء شكر ؛ فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ؛ فكان خيراً له » ، فجعل القضاء ما يصيبه من سراء وضراء .

هذا ظاهر لفظ الحديث ؛ فلا إشكال عليه .

الوجه الثاني : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا ، فقد قال النبي ﷺ : « من سرته حسنته ، وساءته سيئته فهو مؤمن »[1] . فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره ،

(١) **صحيح** .
رواه الترمذى (٢١٦٥) ، الحاكم فى « المستدرك » (١ / ١٣) ، أحمد بن حنبل (١ / ١٨ ، ٢٦) عن ابن عمر بلفظ « خطبنا عمر بالجابية فقال أيها الناس : إنى قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا فقال : أوصيكم بأصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشوا الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ويشهد

فيشكر الله عليه . وإذا قضى عليه بسيئة ، فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها ؛ فإن تاب أبدلت بحسنة ، فيشكر الله عليها ؛ وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها ؛ فيكون ذلك خيراً له . والرسول ﷺ قال : « لا يقضي الله للمؤمن » ، والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب ، بل يتوب منه ، فيكون حسنة كما قد جاء في عدة آيات . وإن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله ، ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفقره وحاجته إليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو . فيحصل للمؤمن ـــ بسبب الذنب ـــ من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك ؛ فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو في ذنوبه بين أمرين :

الشاهد ولا يستشهد . عليكم بالجماعة . وإياكم والفرقة ؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد . ومن أراد بحبوحة الجنة ، فليلزم الجماعة . ومن سرّته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن » قال الترمذي : حسن صحيح غريب .

وقال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . ورواه الحاكم (١ / ١٤) عن أبي أمامة الباهلي بألفاظ وطرق شتى . وقال : هذه الأحاديث كلها صحيحه متصله على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه ؛ فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفِّر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها ؛ فيكفِّر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفعُ درجاته .

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى : ﴿ أهل ذكري أهل مجالستى ، وأهل شكري أهل زيارتي ، وأهل طاعتى أهل كرامتي ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ـــ أي : محبهم ؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ـــ وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب ﴾[1] .

بعض ما في قوله تعالى : ﴿ من نفسك ﴾ من الفوائد :

وفي قوله تعالى : ﴿ من نفسك ﴾ من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها ، فإن الشر لا يجيء إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه ؛ فإن ذلك من السيئات التي أصابته ، وهي إنما أصابته بذنوبه ؛ فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ؛ فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

---

(١) لم أقف عليه في المصادر التي بين يدي .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ؛ فإنه إذا هداه هذا الصراط ، أعانه على طاعته وترك معصيته ؛ فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة . وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب . وليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه ؛ فلماذا يسأل الهدى ؟ وأن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور في كل يوم ، وإلى أن يُلهم أن يعمل ذلك ؛ فإنه لا يكفي مجرد علمه ، إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات مالا يمكن إحصاؤه . ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه .

فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ، ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء ، ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة ؛ فيعلم أن الله ــ بفضله ورحمته ــ جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقضية للخير ، المانعة من الشر .

* * *

[العبرة في قصص الأنبياء]

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها ؛ لما في الإعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا . وإنما يكون الإعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، كانا مشتركين في المقتضى للحكم . فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل فرعون ومن قبله لم يكن بنا حاجة إلى الإعتبار بمن لا نشبهه قط ، ولكن الأمر كما

قال تعالى : ﴿ مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ﴾ [فصلت : ٤٣] .

وكما قال تعالى : ﴿ كذلك مآأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ [الذاريات : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ [البقرة : ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ [التوبة : ٣٠] .

ولهذا قال النبي ﷺ : « لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذَّة بالقذَّة ، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن »[١] .

وقال : « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يارسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟ وكلا الحديثين في الصحيحين »[٢] .

ولما كان في غزوة حنين كان للمشركين شجرة يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون

---

(١) **صحيح** .
أخرجه البخارى (٣٤٥٥) (٧٣٢٠) ، ومسلم (٢٦٦٩) ، وأحمد (٣ / ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٤) ، وابن أبى عاصم فى « السنة » (٧٤) (٧٥) عن أبي سعيد الخدري ورواه ابن ماجه (٣٩٩٤) ، وأحمد بن حنبل (٢ / ٣٢٧ ، ٤٥٠ ، ٥١١ ، ٥٢٧) ، وابن أبي عاصم فى « السنه » (٧٢) ، الحاكم فى « المستدرك » (١ / ٣٧) عن أبى هريرة به وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ ووافقه الذهبى .

(٢) **صحيح** .
أخرجه البخارى (٧٣١٩) ، وأحمد (٢ / ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٥١١) عن أبى هريرة .
أما قول المصنف « وكلا الحديثين فى الصحيحين » فمحل نظر لأن الحديث الثانى إنفرد به البخاري دون الستة كما فى « التحفة » .

بها متبركين ؛ فقال بعض الناس : « يارسول الله ، أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر ! قلتم كما قال قوم موسى لموسى : إجعل لنا إلها كما لهم آلهة ؛ إنها السنن . لتركبن سنن من كان قبلكم »[1] .

وقد بينَّ القرآن أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

* * *

[أعظم السيئات]

فاعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة ونداً له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع ؛ فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى ، وقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : ٣٨] .

و ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : ٢٤] .

وقال لموسى : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

---

(١) **صحيح** .

رواه الترمذي (٢١٨٠) ، وأحمد بن حنبل (٥ / ٢١٨) من طريقين عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي والنسائى فى التفسير « الكبرى » .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

و ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ [الزخرف : ٥٤] .

وإبليس يطلب أن يعبد ويطاع من دون الله ؛ فيريد أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل . وفي نفوس سائر الإنس والجن شعبة من هذا وهذا . وإن لم يعن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضمر . وذلك أن الإنسان إذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

* * *

[حب الرياسة والعلو]

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ؛ بتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ويعادي من يخالفه في هواه ؛ وإنما معبوده ما يهواه ويريده . قال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ [الفرقان : ٤٣] .

والناس عنده في هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم .. يقولون : « ياربـاعي » أي صديق وعدو . فمن وافق هواهم كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً .

ومن لم يوافق هواهم كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هي حال فرعون .

والواحد ، من هؤلاء ، يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع . وهؤلاء ـــ وإن كانوا يقرون بالصانع ـــ لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ماهو عنده ، فإن كان مطاعاً مسلماً ، طلب أن يطاع في أغراضه ، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله ، ويكون من أطاعه في هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون ، وسائر المكذبين للرسل .

وإن كان عالماً أو شيخاً أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس ؛ فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله والاقتداء به أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً ﷺ يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى .. قال تعالى :

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ [البقرة : ٩١]

وقال تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة ﴾ [البينه : ٤]
وقال تعالى : ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ [الشورى : ١٤]

* * *

[عمل بنى اسرائيل كعمل فرعون]

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون ، وسلط عليهم من انتقم به منهم ، فقال تعالى عن فرعون :
﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ [القصص : ٤]
وقال تعالى عنهم : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴾ [الإسراء : ٤] .
ولهذا قال تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ [القصص : ٨٣] .

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ويشكروه ، ويعبدوه . وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ؛ ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ؛ ولتكون كلمة الله هي العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك .. قال تعالى :
﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥]
وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا

أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ [الزخرف : ٤٥] .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه .. فقال :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

وقال تعالى : ﴿ يأأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [المؤمنون : ٥١ — ٥٣] .

قال قتادة : أي دينكم دين واحد ، وربكم رب واحد ، والشريعة مختلفة . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس « إن هذه أمتكم أمة واحدة » ؛ أي دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد نحو ذلك . وقال الحسن : بيَّن لهم ما يتقون ومايأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة . وهكذا قال جمهور المفسرين .

* * *

[معنى الأمة]

و« الأمة » الملة والطريقة ، كما قال تعالى ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : ٢٢] مقتدون ، كما يسمى « الطريق » إماماً ؛ لأن السالك فيه يأتم به ، فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و« الأمة » أيضاً معلم الخير ، الذي يأتم به الناس ، كما أن « الإمام » هو الذي يأتم به الناس ، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً ، وأخبر أنه : ﴿ كان أمة ﴾ [النحل : ١٢٠] .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً ، لا يتفرقون فيه ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إنا معشر ديننا واحد »[1] وقد قال الله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى : ١٣] . ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضا لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

* * *

[أتباع الرسل المخلصون]

فمن كان من المطاعين ، من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك ، متبعاً للرسل .. أمر بما أمروا به ، ودعا إلى مادعوا إليه ، وأحب من دعا إلى مثل مادعا إليه ، فإن الله يحب ذلك ؛

---

(١) **صحيح** .
أخرجه البخارى (٣٤٤٣) ، ومسلم (٢٣٦٥) وأحمد بن حنبل (٢ / ٣١٩ ، ٤٨٢) عن أبى هريرة بلفظ أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الأولى والآخره قالوا : كيف يارسول الله ؟ قال « الأنبياء إخوه من علات . وأمها تهم شتى ودينهم واحد . فليس بيننا نبى » .
أما الحديث باللفظ الذى أورده المصنف فلم أقف عليه .

فيحب ما يحبه الله تعالى ، وهذا قصده في نفس الأمر أن تكون العبادة لله تعالى وحده ، وأن يكون الدين كله لله .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك ، فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود ، فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله ، فهذا حال فرعون . ومن طلب أن يطاع مع الله ، فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به .

فالمؤمن المتبع للرسل ، يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله لا له . وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه ، وسرَّ بوجود مطلوبه . وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويعلم أن الله قد مَنَّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ، التي ذكرنا أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أي شيء . ولهذا فرضت عليهم قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور ، ولم ينزل فى التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها ؛ فإن فيها : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

فالمؤمن يرى أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله ، لأنه إياه يستعين . فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ؛ لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ [الإنسان : ٩] ولا يَمُنُّ عليه بذلك ولا يؤذيه ؛ فإنه قد علم أن الله هو المانّ عليه ؛ إذا استعمله في الإحسان ، وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص ، فعليه هو أن يشكر الله ، إذ يسره لليسرى ، وعلى ذلك أن يشكر الله ؛ إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق ، أو علم ، أو نصر ، أو غير ذلك .

ومن الناس من يحسن إلى غيره ليمُنَّ عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمن عليه ، فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه ، ولا عمل لله ، ولا عمل بالله ، فهو المرائي .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائي .. قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق مَاله رئاءَ الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌّ والله بما تعملون بصير ﴾ [البقرة : ٢٦٤ — ٢٦٥] .

قال قتادة : « تثبيتاً من أنفسهم » إحتسابا من أنفسهم .

وقال الشعبي : يقيناً وتصديقاً من أنفسهم .

وكذلك قال الكلبي ، قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم ، على يقين بالثواب ، وتصديق بوعد الله ، يعملون أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطي محتسباً للأجر عند الله ، مصدقاً بوعد الله له طالب من الله ، لا من الذي أعطاه ، فلا يمنّ عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط مماليكك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمن على المماليك ، لا سيما إذا كان يعلم أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

* * *



فصـــل

لماذا الابتلاء بالذنوب ؟

الفرق السادس : أن يقال : إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ــ وإن كانت خلقا لله ــ فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له ، وفطره عليه ؛ فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، ودلَّه على الفطرة ، كما قال النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » . وقال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم : ٣٠] .

فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به : من معرفة الله وحده ، وعبادته وحده عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي .

قال تعالى للشيطان : ﴿ إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ــ إلى قوله ــ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الإسراء : ٦٣ ــ ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه علىٰ الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ [النحل : ٩٩ ــ ١٠٠] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من

الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ [الأعراف : ٢٠١ — ٢٠٢] .

* * *

[الإخلاص شفاء]

فقد تبين أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان ، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب .. كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [يوسف : ٢٤] .

فإذا أخلص العبد لربه الدين ، كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ، ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك . وإذا لم يخلص لربه الدين ، ولم يفعل ماخلق له ، وفطر عليه عوقب على ذلك ، وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه ، حتى يُزَيِّنَ له فعل السيئات ، وكان إلهامه لفجوره عقوبةً له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات ، ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ؛ بل هو أمر عدمي ، لكن يعاقب عليه لكونه عدم ماخلق له ، ومأمر له . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمي ؛ لكن بفعل السيئات لا بالعقوبات التي يستحقها بعد إقامة الحجة عليه ، بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .

والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه ؛ لأنه عدم محض ، ويقولون : إنما يعاقب على الترك ، وهذا أمر وجودي .

وطائفة — منهم أبو هاشم — قالوا : بل يعاقب على هذا العدم ، بمعنى أنه يعاقب عليه ، كما يعاقب على فعل الذنوب بالنار ونحوها .

وماذكر في هذا الوجه هو أمر وسط ، وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها ، ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله ؛ فإذا عصى الرسول استحق حينئذ العقوبة التامة . وهو أولاً إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه ، أو بأن لا تقوم عليه الحجة ، وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه ، بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يُبلّغ ، فإذا بُلّغ عوقب .

ثم ما تعوَّده من فعل السيئات ، قد يكون سبباً لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يعاقب إلا على ذنبه . ولكن العقوبة المعروفة ، إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات ، فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

* * *

[الشر ليس إلى الله]

وعلى هذا ؛ فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه ؛ فإنه وإن كان الله خالق أفعال العباد فخلقه للطاعات نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات له فيه حكمة ورحمة . وهو — مع هذا — عدل

منه ، فما ظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان :

عدم عملهم بالحسنات ، فهذا ليس مضافاً إليه .

وعملهم للسيئات .. خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها ، وأمرهم بها ؛ فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبَّر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل ، كقوله تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ [الليل : ٨ — ١٠] .

وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالا ، عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور .

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم ، لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له ، ولا بد لهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات ، عدلا من الله ؛ حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له ، وهو القلب الذي لا يكون

إلا عاملا ، فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة .. كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام القدرية المكذبة ، والمجبرة . الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً .

والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك ، لا لسبب ولا لحكمة .

فإنه تعالى إنما أوقعهم في تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم ؛ عقوبة لهم على عدم فعلهم ماأمرهم به ؛ فما ظلمهم ، ولكن هم ظلموا أنفسهم .

يقال : ظلمته إذا نقصته حقه .. قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ﴾ [الكهف : ٣٣] .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له على عمل منه متقدم ، ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع . فلا ينازعون في نفس خلق أفعال العباد ، لكن يقولون : ما خلق شيئاً من الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالماً .

فنقول : أول مايفعله العبد من الذنوب هو أحدثه ، لم يحدثه الله ثم ما يكون جزاء على ذلك ، فالله محدثه .

وهم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال إلا من هذه

الجهة . وهذا الذي ذكرناه يوافقون عليه ، لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه الله ، بل يحدثه العبد ، لئلا يكون الجزاء عليه ظلماً .

وما ذكرناه يوجب أن الله خالق كل شيء ؛ فما حدث شيء إلا بمشيئته وقدرته ، ولكن أول الذنوب الوجودية هو المخلوق . وذاك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغي له أن يفعله .

وهذا العدم لا يجوز إضافته إلى الله ، وليس بشيء ، حتى يدخل في قولنا : « الله خالق كل شيء » . وما أحدثه من الذنوب الوجودية ، فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم ، وسائرها : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد ، وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لا يخلص لله العمل ، فلا يزال مشركاً ، ولا يزال الشيطان مسلطا عليه .

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه ، بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله ـــ هو تخصيص منه بفضله ورحمته .. ولهذا يقول الله : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [البقرة : ١٠٥] .. ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها ، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية ، وغير ذلك من حكمته .

وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب ، والله أعلم بالصواب .

* * *

فصـــل

جزاء عدم الإيمان

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان : قوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .. وهذا من تمام قوله : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ـــ الآية ﴾ [الأنعام : ١٠٩ ـــ ١١٠] .

فذكر أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان . لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الإيمان وكذبوا الرسول ، وهذه أمور وجودية ، لكن الموجب للعذاب هو عدم الإيمان ، وماذكر شرط في التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول ؛ فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح : من أكل ، وشرب ، وبيع ، وسفر ، وغير ذلك . وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة ، إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه . ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودي ، لا ضد له إلا ذلك .

* * *



فصــل

النعم من الله والسيئات من النفس

الفرق السابع : بين الحسنات والسيئات التي تتناول الأعمال والجزاء ، في كون هذه تضاف إلى النفس ، وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التي تصيب الإنسان ، وهي مصائب الدنيا والآخرة ، ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه ؛ فانحصرت في نفسه . وأما ما يصيبه من الخير والنعم ، فإنه لا تنحصر أسبابه ؛ لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله نفسه من إنعام الله عليه .. وهو سبحانه لا يجزى بقدر العمل ، بل يضاعفه له ، ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها ، لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه ، فيرجع فيها إلى الله ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ويعلم أن النعم كلها من الله ، وأن كل ماخلقه فهو نعمة ، كما تقدم ؛ فهو يستحق الشكر المطلق العام التام ، الذي لا يستحقه غيره .

ومن الشكر ما يكون جزاء على مايسره على يديه من الخير : كشكر الوالدين ، وشكر من أحسن إليه من غيرهما ؛ فإنه « من لا يشكر الناس لا يشكر الله »[1] ، لكن لا يبلغ من حق

(١) **صحيح** .

أخرجه الترمذى (١٩٥٤) ، أبو داود (٤٨١١) ، وأحمد بن حنبل (٢ / ٢٥٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٨٨ ، ٤٦١ ، ٤٩٢) عن أبى هريرة مرفوعاً . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح وأخرجه الترمذى (١٩٥٥) ، وأحمد بن حنبل (٣ / ٣٢ ، ٧٤) عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعاً .

أحد وإنعامه ، أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله ، فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة ، التي لا يقدر عليها مخلوق ، ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضاً .. وقال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل ٥٣] .. وقال تعالى ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ [الجاثيه ١٣] .. وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

* * *

[لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق]

فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق ، كما قال تعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ [العنكبوت ٨] .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليَّ ﴾ [لقمان ١٥] .

وأخرجه أحمد بن حنبل (٤ / ٢٧٨) وابنه عبد الله فى « الزوائد » (٤ / ٣٧٥) وابن أبي الدنيا فى كتاب « الشكر لله عز وجل » (٦٣) والخرائطى في « فضيلة الشكر » (٨٢) عن النعمان بن بشير رضى الله عنه مرفوعاً . بلفظ « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الأعواد أو على هذا المنبر من لم يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لا يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب » .

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « على المرء المسلم السمع والطاعة : في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية ؛ فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[1] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف »[2] .

---

(١) **صحيح** .

رواه البخارى (٢٩٥٥) (٧١٤٤) ، ومسلم (١٨٣٩) ، وأبو داود (٢٦٢٦) ، والنسائى (٧ / ١٦٠) ، وابن ماجه (٢٨٦٤) ، وأحمد بن حنبل (٢ / ١٧ ، ١٤٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه . بلفظ « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

(٢) **صحيح** .

أخرجه البخارى (٤٣٤٠) (٧١٤٥) (٧٢٥٧) ، ومسلم (١٨٤٠) ، أبو داود (٢٦٢٥) ، والنسائي (٧ / ١٥٩ — ١٦٠) ، أحمد بن حنبل (١ / ٨٢ ، ٩٤ ، ١٢٤) وتمام الحديث « بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية فاستعمل رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال : أليس أمركم النبى صلى الله عليه وسلم أن تطيعونى ؟ قالوا بلى . قال فاجمعوا لى حطباً فجمعوا فقال : أوقدوا ناراً فأوقدوها فقال : أدخلوها . فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون فررّنا الى النبى صلى الله عليه وسلم من النار فمازالو حتى خمدت النار فسكن غضبه فبلغ النبى فقال لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة والطاعة فى المعروف » والسياق للبخارى .

وقال : « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه »[1] وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[2] .

---

(١) **حسن .**

رواه ابن ماجه (٢٨٦٣) ، أحمد بن حنبل (٣ / ٦٧) من طريق يزيد بن هارون ثنا محمد بن عمرو عن عمر بن الحكم بن ثوبان عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث علقمة بن مُجَزِّزٍ على بعث وأنا فيهم فأذن لهم وأَمَّر عليهم عبد الله بن حذافه بن قيس السهمي فكنت فيمن غزا معه فلما كان ببعض الطريق أوقد القوم ناراً ليصطلوا أو ليصنعوا عليها صنعاً فقال عبد الله ــ وكانت فيه دعابة ــ أليس لى عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا بلى : قال فما أنا بآمركم بشيء إلا صنعتموه ؟ قالوا نعم ! قال فإني أعزم عليكم إلا تواثبتم فى هذه النار فقام ناس فتحجزوا فلما ظن أنهم واثبون قال أمسكوا على أنفسكم . فإنما كنت أمزح معكم . فلما قدمنا ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال من أمركم منهم بمعصية الله فلا تطيعوه قلت : وهذا إسناد حسن لأجل محمد بن عمرو وهو بن علقمة بن وقاص الليثي المدني . قال عنه الحافظ فى « التقريب » صدوق له أو هام . وعمر بن الحكم بن ثوبان قال عنه الحافظ فى « التقريب » صدوق .

(٢) **صحيح بشواهده .**

أخرجه أحمد بن حنبل (٤ / ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٦) والحاكم فى « المستدرك » (٣ / ٤٤٣) ، والطيالسي (٨٥٦) بلفظ « إن زياداً أستعمل الحكم الغفاري على جيش فأتاه عمران بن حصين فلقيه بين الناس فقال أتدري لم جئتك ؟ فقال له : لم ؟ قال : هل تذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى قال أميره قع فى النار فقام الرجل ليقع فيها فأدرك فاحتبس فأُخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال لو وقع فيها لدخلا النار جميعاً لا طاعة فى

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله ، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، وأنه ﴿ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ [فاطر : ٢] — صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر ، الذي لا يستحقه غيره صار علمه بأن الحسنات من الله يوجب له الصدق في شكر الله ، والتوكل عليه . ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً ؛ لأن منها ماليس لعمله فيه مدخل . وماكان لعمله فيه مدخل ؛ فإن الله هو المنعم به ؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه . وعلم أن الشر قد انحصر سببه في النفس ، فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى ؛ فاستغفر ربه مما فعل وتاب ، واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف : لا يْرجوَن عبد إلا ربه ، ولا يخافَن عبد إلا ذنبه .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون :

معصية الله تبارك وتعالى » .

وأورده الهيثمي فى « مجمع الزوائد » (٥ / ٢٢٦) بهذا اللفظ من حديث عمران بن حصين والحكم بن عمرو وقال :

رواه البزار والطبراني فى « الكبير والأوسط » ورجال البزار رجال الصحيح . ويشهد لهذا الحديث الحديث الذى قبله وكذلك حديث علي الذى فى « الصحيحين » « إنما الطاعة فى المعروف » .

إن الله يعذب بلا ذنب ، ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائما أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً ، سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب ، ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذي لا ينضبط فعله ولا سطوته ، بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدّق العبد بقوله تعالى : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التي تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف ــ ابن عباس وغيره ــ أن ماأصابهم يوم أُحد من الغم والفشل ، إنما كان بذنوبهم ، لم يستثن من ذلك أحد .

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « مايصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفَّر الله بها من خطاياه »[(١)] .

---

(١) صحيح .

رواه البخاري (٥٦٤١) ، مسلم (٢٥٧٣) ، الترمذي (٩٦٦) ، أحمد (٣ / ٤ ، ١٨ ــ ١٩ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٨١) عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه .

ورواه البخاري (٥٦٤٢) ، مسلم (٢٥٧٣) ، وأحمد (٢ / ٣٠٣ ــ ٣٣٥) عن ابى هريرة .

فصــل

النفوس الخبيثة ومصيرها

الفرق الثامن : أن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة مذمومة ، وصفها بالخبث في مثل قوله : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ [النور : ٢٦] .

قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين .

ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا كلمة طيبة ــ ومثل كلمة خبيثة ﴾ [ابراهيم : ٢٤ ــ ٢٦] وقال الله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : ١٠] .

والأقوال والأفعال صفات القائل والفاعل . فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا مايناسبها . فمن أراد أن يجعل الحيات والعقارب يعاشرون الناس كالسنانير لم يصلح . ومن أراد أن يجعل الذي يكذب شاهداً على الناس لم يصلح . وكذلك من أراد أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم ، أو يجعل العاجز الجبان مقاتلا عن الناس ، أو يجعل الأحمق الذي لا يعرف شيئاً سائساً للناس أو للدواب ؛ فمثل هذا يوجب الفساد في العالم ، وقد يكون غير ممكن ، مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبحُ على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى السماء كالريح ، ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لاتصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء ، فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن . بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة .

كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن المؤمنين إذا نجوا من النار ـــ أي عبروا الصراط ـــ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض من مظالم كانت بينهم في الدنيا ، فإذا هذبوا ونقوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة »[1] .

وهذا مما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »[1] .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب ، فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب ، فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

---

(١) **صحيح** .

رواه البخارى (٢٤٤٠) (٦٥٣٥) ، أحمد (٣ / ١٣ ، ٦٣ ، ٧٤) . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً به .

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة ، فإنها من إنعام الحي القيوم الباقي ، الأول والآخر ، فسببها دائم ؛ فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءًا يُجْزَ به ﴾ [النساء : ١٢٣] .. وقوله : ﴿ فمن يعمل مثقالا ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزلة : ٧ ــ ٨] .. وعلم أن الرب عليم ، حليم ، رحيم ، عدل ؛ وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان ، وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « يمين الله ملأى ، لايغيضها نفقة ، سحّاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما في يمينه ، والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع »[1] .

* * *

(١) البخاري (٤٦٨٤) (٥٣٥٢) (٧٤١١) (٧٤١٩) (٧٤٩٦) ، ومسلم (٩٩٣) ، الترمذي (٣٠٤٥) ، أحمد (٢ / ٣١٣ ، ٥٠٠) عن أبي هريرة رضى الله عنه بلفظ « قال الله عز وجل . أنفق أنفق عليك . وقال يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما فى يده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع » والسياق للبخاري .

[مقولة في الفرق بين الثواب والعقاب]

وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للإشياء مواضعها ؛ فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه ، وهو سبحانه قد شهد ﴿ إنه لا إله إلا هو والملائكة أولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز والحكيم ﴾ [آل عمران : ١٨] .

ولهذا يقولون : لا ندري مايفعل بمن فعل السيئات . بل يجوز عندهم أن يعفو عن الجميع ، ويجوز عندهم أن يعذب الجميع ، ويجوز أن يعذب ويغفر بلا موازنة ، بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئةّ صغيرة ، ولا يغفرها له .

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ، ولا حسنات ماحية ، ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر . قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر ، خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس في الكتاب والسنة مايبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ [النساء : ٣١] ، بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ [النساء : ٤٨] .

وقد ذكر هذه الأمور القاضي أبو بكر بن الباقلاني وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهم بن صفوان في القدر وفي الوعيد ، وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة في القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء ؛ وسلكوا مسلك نفاة القدر في هذا ، وقالوا في الوعيد بنحو قول الخوارج قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها ، بل يكون عذابه مؤبداً ، فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته ــ عندهم ــ ولا يرحمه الله أبداً ، بل يخلده في النار ، فخالفوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه في القدر ، وناقضهم جَهْم في هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهم ، مع انتسابهم إلى أهل السنة والحديث ، واتباع السلف ، وكذلك سلكوا في الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة ، كجهم وأتباعه .

* * *

[جهم وبدعته]

وجهم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع في الأسماء والصفات ، فغلا في نفي الأسماء والصفات ، ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنية والفلاسفة ونحوهم ، ووافقه المعتزلة في نفي الصفات دون الأسماء .

والكلابية ، ومن وافقهم من السالمية ، ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية ــ وافقوه على نفي الصفات الإختيارية ، دون نفي أصل الصفات .

والكرامية ونحوهم ، وافقوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام مالا يتناهى ، وأنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلما إذا شاء ، وفعالا لما يشاء ، لا متناع حوادث لا أول لها ، وهو عن

هذا الأصل الذي هو نفي وجود مالا يتناهى في المستقبل قال بفناء الجنة والنار .

وقد وافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا ، لكن قال : بتناهي الحركات .

فالمعتزلة في الصفات مخانيث الجهمية .

وأما الكلابية ، فيثبتون الصفات في الجملة ، وكذلك الأشعريون ، ولكنهم كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصارى : الجهمية الإناث ، وهم مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا ؛ لأن قائله لم يعلم أن جهماً سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه ، وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستاني يذكر عن شيوخهم : أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة ، لأن الشهرستاني إنما يرى مناظرة أصحابه الأشعرية في الصفات ونحوها مع المعتزلة ، بخلاف أئمة السنة والحديث ، فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية ، وهم المشهورون عند السلف والأمة بنفي الصفات .

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية ، وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

* * *

[نشأة المعتزلة والجهمية]

وأما المعتزلة ، فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد ، وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة ، فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية .
وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر ، قد حدّث أهله به قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد موت معاوية ؛ ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهما .

وابن عباس مات قبل ابن الزبير ، وابن عمر مات عقب موته ، وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة بعد موت الحسن ، وتكلموا في المنزلة بين المنزلتين ، وقالوا بإنفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد في النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها ، وهذا تغليظ على أهل الذنوب ضموا إلى ذلك القدر ؛ فإن به يتم التغليظ على أهل الذنوب ، ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

* * *

[ظهور الجعد بن درهم]

إلى أن ظهر الجعد بن درهم ، وهو أولهم ؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري وقال : « أيها الناس ، ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم ، أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » . ثم نزل فذبحه ، وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأي جهم .

ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق ، أكثر كلاماً في رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل : إبراهيم بن طهمان ، وخارجة بن مصعب ؛ ومثل : عبد الله بن المبارك ــ وقد تكلم في ذمهم ــ وابن الماجشون وغيرهما ، وكذلك : الأوزاعي ، وحماد بن زيد ، وغيرهم .

* * *

[محنة الأمام أحمد في فتنة خلق القرآن]

وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة ؛ فإنهم في إمارة المأمون قووا وكثروا . فإنه كان قد أقام بخراسان مدة ، واجتمع بهم ، ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثمان عشرة ومائتين ، وفيها مات ، وردوا أحمد ابن حنبل إلى الحبس ببغداد ، إلى سنة عشرين ، وفيها كانت

محنته مع المعتصم ومناظرته لهم في الكلام ، فلما رد عليهم مااحتجوا به عليه ، وبيَّن أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحانهم إياهم ، جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه ، فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم في العامة ، وخافوا الفتنة ، فأطلقوه .

* * *

[القائلون بخلق القرآن]

وكان أحمد بن أبي دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف ، فجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث ، ومن أكابر النجارية أصحاب حسين النجار .

وأئمة السنة : كابن المبارك ، وأحمد بن إسحاق ، والبخاري وغيرهم ـــ يسمون جميع هؤلاء جهمية .

وصار كثير من المتأخرين ، من أصحاب أحمد وغيرهم ، يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة . ويظنون أن بشر بن غياث المريسي ، وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن أبي دؤاد ونحوهما كانوا معتزلين .. وليس كذلك . بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق . وكانت الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق. .

وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً إشتهر عنه نوعان من البدع ، أحدهما : نفي الصفات ، والثاني : الغلوفي القدر والإرجاء ؛ فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب ، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة . وهذان مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .

وأما الأشعري ، فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية .

وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات : لا الإرادة ، ولا غيرها . فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصي ، فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .

وأما الأشعري ، فهو يثبت الصفات ــ كالإرادة ــ فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الإرادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصي يحبها الله ويرضاها كما يريدها .

وذكر أبو المعالي الجويني : أنه أول من قال ذلك ؛ وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في « الموجز » : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم ، أشك في بعضهم .

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية ومشايخ المعرفة والحقيقة ؛ فصاروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له في مسائل الصفات ، كأبي إسماعيل

الأنصارى الهروي ، صاحب كتاب « ذم الكلام » ؛ فإنه من المبالغين في ذم الجهمية لنفيهم الصفات . وله كتاب « تكفير الجهمية » ، ويبالغ في ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة والحديث . وربما كان يلعنهم .

وقد قال له بعض الناس بحضرة نظام الملك : أتلعن الأشعرية ؟

فقال : ألعن من يقول : ليس في السموات إله ، ولا في المصحف قرآن ، ولا في القبر نبي .

وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو في مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال أبلغ من الأشعرية ، لا يثبت سبباً ، ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده هي المشيئة ؛ لأن العارف المحقق ، عنده ، هو من يصل إلى مقام الفناء ، فيفني عن جميع مراداته بمراد الحق ، وجميع الكائنات مرادة له ، وهذا هو الحكم عنده . و« الحسنة » و« السيئة » يفترقات في حظ العبد ، لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه ، والإلتفات إلى هذا من حظوظ النفس ، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق .

وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد ، كما ذكر ذلك في غير موضع .

وبين لهم الجنيد الفرق الثاني ، وهو أنهم ـــ مع مشاهدة المشيئة العامة ـــ لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهي عنه . وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه ، وبين ذلك لهم الجنيد ، كما قال في التوحيد . هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة ، كان قد اهتدى ونجا وسعد .

ومن لم يسلك في القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع ، لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق ، فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء وهذه الأعمال ، ولا يبغض هؤلاء وهذه الأعمال ؛ بل جميع الحوادث هو يحبها كما يريدها ، كما قاله الأشعري . وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون ، وهؤلاء يعذبون .

والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا وهذا ـــ بالنسبة إلى المخلوق ـــ كان أعقل منهم .

فإن هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا فرق بين هذا وهذا .

وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب .

* * *

[مذهب الصوفية في الفناء]

أما في حق العبد ، فيلزمهم أن تستوي عنده جميع الحوادث ، وهذا محال قطعا ، وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء .

أما الفناء عن جميعها فممتنع ، فإنه لا بد أن يفرق كل حي بين ما يؤلمه وبين ما يلذه ؛ فيفرق بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء عزلوا الفرق الشرعي الإيماني والرحماني الذي به فرق الله بين أوليائه وأعدائه ، وظنوا أنهم مع الجمع القدري .

وعلى هذا ، فإن لم يفرق بالفرق الشرعي ، فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه ، وبين ما يرضاه ويسخطه ، وإلا فرق بالفرق الطبيعي بهواه وشيطانه ؛ فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمره به شيطانه . ومن هنا وقع منهم خلق كثير في المعاصي ، وآخرون في الفسوق ، وآخرون في الكفر ؛ حتى جوزوا عبادة الأصنام .

* * *

[وحدة الوجود عند الصوفية]

ثم كثير منهم من ينتقل إلى وحدة الوجود ، وهم الذين خالفوا الجنيد ، وأئمة الدين في التوحيد ؛ فلم يفرقوا بين القديم والمحدث . وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود ، كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع .. وهو قول أهل الوحدة :

كابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، والقونوي ، والتلمساني ، والبلباني ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفي الحكم والعدل والأسباب في القدر بين أهل الكلام والمتصوفة ، الذين وافقوا جهم في هذا الأصل ، وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه ، بخلاف الإرجاء فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ويمكن فعله ، من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ، ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هي محبته .

ولهذا نجد من ابتعهم غير معظِّم للأمر والنهي ، والوعد والوعيد ؛ بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله ، أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه ؛ فإنهم أرادوا أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ماشاءه فقد أحبه ، وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلفه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها ، بل غايته أنه يسوق المقادير إلى المواقيت . ولم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور ؛ بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله — كالأشعري — في أنه في نفس الأمر : لا حسن ولا سيء . وإنما الحسن والقبح مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً ، وذلك فرق يعود إلى حظ العبد ، وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ . فتارة يقولون في امتثال الأمر والنهي : إنه من مقام التلبيس ، أو ما يشبه هذا . كما يوجد في كلام أبي إسماعيل الهروي صاحب « منازل

السائرين » . وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أي العامة ، كما يقوله الشيخ المغربي وأنواع أخرى ليس هذا موضع بسطها .

ومن يسلك مسلكهم ، غايته إذا عظم الأمر والنهي .. أن يقول ، كما نقل عن الشاذلي : يكون الجمع في قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً .

ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية وأحزاب ، تستلزم تعطيل الأمر والنهي ، مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه ، ونحو هذا ؛ مما يوجب أنه يجوز عنده أن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم . ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد في جواب الشاذلي .

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

* * *

[الكرامات عند الصوفية]

وآخرون من عوام هؤلاء يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء مَنْ يكون فاجراً ، بل كافراً ، ويقولون : هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء ، ما هي متعلقة لا بصلاة ولا بصيام . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء . وتكون كراماتهم من الأحوال الشيطانية ، التي يكون مثلها للسحرة والكهان . .

قال الله تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل وهاروت وماروت ﴾ [البقرة : ١٠١ ــ ١٠٢] .

وقد قال النبي ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القُذَّة بالقُذَّة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »[١] .

والمسلمون ، الذين جاءهم كتاب الله القرآن ، عدل كثير منهم ، ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام ، إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ما تتلوه الشياطين ؛ فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه ، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته ، بل يعظم من رآه يأتي ببعض خوارقهم ، التي يأتي بمثلها السحرة والكهان بإعانة الشياطين ، وهي تحصل بما تتلوه الشياطين .

ثم منهم من يعرف أن هذا من الشيطان ، ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار ، كالذّين قال الله تعالى فيهم :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت

(١) **صحيح** . تقدم تخريجه .

والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ [النساء : ٥١ ــ ٥٢] .

وهؤلاء ضاهئوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ــ الآية ﴾ [البقرة : ١٠١ ــ ١٠٢] .

ومنهم مَنْ لا يعرف أن هذا من الشياطين .

وقد وقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام والعلم ، وأهل العبادة والتصوف ؛ حتى جوزوا عبادة الكواكب والأصنام ؛ لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة ، التي تعينهم عليها الشياطين ؛ لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه ؛ إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس ، وتعظيمهم لهم ؛ لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه . وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك ــ عملوه ، ودعوا إليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول ﷺ ، أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن ، لأجل مصلحة الجمهور ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

وقد دخل في رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا

مما ضاهئوا به فارس والروم ، وغيرهم . فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار . والروم كانوا ــ قبل النصرانية ــ مشركين ، يعبدون الكواكب والأصنام ، فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى ؛ فإن أولئك ضاهئوا أهل الكتاب فيما بدل أو نسخ ، وهؤلاء ضاهئوا من لا كتاب له من المجوس والمشركين ، فارس والروم ، ومن دخل في ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية ، مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس . وأصل قول المجوس يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس .

* * *

[أصل الشر]

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكين للرب ، وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علَّم النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يقول إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ؛ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .. إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »(١) .

---

(١) **صحيح** .
أخرجه مسلم (٧٧٠) ، أبو داود (٧٦٧) (٧٦٨) ، والترمذى

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى : ﴿ ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ .. مع قوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] .. وقوله : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [صٓ: ٨٥] .

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية في فرعون ، ونحوه ، ممن اعى أنه إله مع الله أو من دونه . وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله كالمسيح وغيره .

وأصل الشرك في بني آدم ، كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ؛ فإنهم لمّا ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان في بني آدم ، وكان في قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، يدعوهم إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ؛ كما قال تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم . ولا تذرن وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ﴾ [نوح : ٢٣ ـــ ٢٤] .. وهذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ،

(٣٤٢٠) ، والنسائي (٣ / ٢١٢ ـــ ٢١٣) ، وابن ماجه (١٣٥٧) وأحمد بن حنبل (٦ / ١٥٦) من طريقين عن يحي بن أبي كثير قال قال أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف : سألت عائشة : بأي شيء كان النبى صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته ؟ قالت : كان إذا قام من الليل أفتتح صلاته قال : « اللهم ... » .

ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهي نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان .. فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه ، وأنه يجب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء ، لا يحب شيئاً دون شيء ؛ فلا فرق عنده بين من يعبده وحده ، لا يشرك به شيئاً ، وبين من يعبد معه آلهة أخرى ؛ وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ، ليس معها حكمة ، ولا رحمة ، ولا عدل . ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس في نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله .

* * *

[من صفات « الولي» عند الصوفية]

ثم إذا جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح ، ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق ، وجوزوا الخوارق مطلقا ، وحكوا في ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالا منكرة .

فقال بعضهم : إن الولي يعطي قول « كن » وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الولي فعل ممكن ، كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربي والذين اتبعوه .. قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم مايقال : إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير ذلك . وزاد ابن عربي : أن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات . والذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات ، هو الله وحده . فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمه الله ، ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .

وادعوا أن هذا كان للنبي ، ثم انتقل إلى الحسن بن علي ، ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد ؛ حتى انتهى ذلك إلى أبي الحسن الشاذلي ، ثم إلى ابنه .

خاطبني بذلك من هو من أكابر أصحابهم .

وحدثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحدثني بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود في مكة ، فدخلا الكعبة ، فقال له ابن هود ــ وأشار إلى وسط الكعبة ــ هذا مهبط النور الأول . وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ، ماذا كنت

تقول له ؟ قال : فوقف شعري من هذا الكلام وانخنست ـــ أو كما قال .

ومن الناس من يحكي عن سهل بن عبد الله التستري : أنه لما دخل الزنج البصرة ـــ قيل له في ذلك . فقال : هاه ، إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها ، ولو سألوه أن لا يقيم القيامة لما أقامها . لكنهم يعلمون مواضع رضاه ، فلا يسألونه إلا ما يحب .

وهذه الحكاية ، إما كذب على سهل ، وهو الذي نختار أن يكون حقاً ؛ أو تكون غلطا منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك أن ماأخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون ، ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون لم يجبهم ، مثل إقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك . بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في أن لا يكون . لكن الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله أنه سيكون بهذا السبب كما يقضي بسائر الأسباب ما علم أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى مَنْ هم أفضل من كل من في البصرة بكثير ـــ ما هو دون هذا فلم يجابوا ؛ لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه ، وكما سأله نوح عليه السلام نجاة ابنه . فقيل له : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فَلاَ تَسْئَلْنِ ما ليس لك به علم ﴾ [هود : ٤٦] . وأفضل الخلق محمد ﷺ ، قيل له في شأن عمه أبي طالب :

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قُربى ﴾ [التوبة : ١١٣] .

وقيل له في المنافقين : ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ [المنافقون : ٦] .

وقد قال تعالى عموماً : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وقال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ [سبأ : ٢٣] .

فمن هذا الذي لو سأل الله ما يشاؤه هو أعطاه إياه ؟ !

وسيد الشفعاء محمد ﷺ يوم القيامة أخبر أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويثني عليه . فيقال له : أي محمد ، إرفع رأسك ، وقل تُسْمَعْ ، وسل تعط ، واشفع تُشَفَّعْ . قال . فيحد لي حداً . فأدخلهم الجنة »[(١)] .

---

(١) **صحيح** .

رواه البخاري (٣٣٤٠) (٣٣٦١) (٤٧١٢) ، ومسلم (٩٤) والترمذي (٤٢٣٤) ، وأحمد (٢ / ٤٣٦) عن أبي هريرة .

ورواه البخاري (٧٤١٠) (٧٥١٠) (٦٥٦٥) ، مسلم (١٩٣) ، ابن ماجه (٤٣١٢) وأحمد (٣ / ١١٦ ، ١٤٤ ، ١٧٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨) من حديث أنس بن مالك به .

ورواه البخاري (٤٥٨١) (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) ، والترمذي (٣١٤٨) من حديث أبي سعيد .

ورواه أحمد (١ / ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) عن ابن عباس .

وقد قال تعالى : ﴿ أدعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

* * *

[الإعتداء فى الدعاء]

وأي اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، أو أن يفعل ما قد أخبر أنه لا يفعله .

وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وقال : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ [غافر : ٦٠] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم ؛ إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها »[1] .

---

(١) **صحيح** .

رواه أحمد بن حنبل (٣ / ١٨) ، وابن أبى شيبة فى « مصنفه » والحاكم فى المستدرك (١ / ٤٩٣) عن أبي سعيد الخدري . وقال

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب أو مثله . وهذا غاية الإجابة ؛ فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً ، أو مفسداً للداعي أو لغيره ، والداعي جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه . والرب قريب مجيب ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والكريم الرحيم إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه ــ أعطاه نظيره ، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له ؛ فإنه يعطيه من ماله نظيره .. ولله المثل الأعلى .

وكما فعل النبي ﷺ ، لما طلبت منه طائفة من بني عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم ، فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل ابن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وقد روي في الحديث « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء »[2] .. وهذا حق .

هذا حديث صحيح الإسناد إلا ان الشيخين لم يخرجاه عن علي بن علي الرفاعي ووافقه الذهبي .

ورواه الترمذي (٣٥٧٣) ، أحمد (٥ / ٣٢٩) عن عباده بن الصامت .

وقول المصنف أن الحديث فى الصحيحين لم أجده فى الصحيحين بل رواه البخاري فى « الأدب المفرد » (٢ / ١٧٤) .

(٢) **حسن** .

رواه الترمذي (٣٣٧٠) ، ابن ماجه (٣٨٢٩) ، أحمد بن حنبل (٢ / ٣٦٢) ، الحاكم (١ / ٤٩٠) .

. . . .

وقال الترمذى : حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حيث عمران القطان وهو ابن داور ويكن أبا العوام .

وقال الحاكم هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي .

قلت : إسناده حسن لأجل عمران ابن داور بفتح الواو بعدها راء أبو العوام القطان البصري قال عنه الحافظ فى « التقريب » « صدوق يهم »

فصــل

[وجوب توحيد الله وشكره واستغفاره وطلب الحسنات منه سبحانه]

ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أوجب هذا أن لا يطلب العبد الحسنات ــ والحسنات تدخل فيها كل نعمة ــ إلا من الله ، وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذي لايستحقه غيره ، ويعلم أنه لا إله إلا هو ، كما قال تعالى : ﴿ ومابكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : ٥٣] .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تَجْـَٔرون ﴾ [النحل : ٥٣] .. وهذا إخبار عن حالهم ، والجؤار : يتضمن رفع الصوت . والإنسان إنما يجأر إذا مسه الضر ، وأما في حال النعمة فهو ساكن : إما شاكراً وإما كفوراً : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تَجْـَٔرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ [النحل : ٥٣ ــ ٥٤] .

وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه ؛ فيضيف العبد ــ بعد ذلك ــ الإنعام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى :

﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ [الروم : ٣٣ — ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذا لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ [الأنعام : ٦٣ — ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ [الزمر : ٨] .

وقوله : « نسي ماكان يدعو إليه » أي نسي الضر الذي كان يدعو الله لدفعه عنه ، كما قال في سورة الأنعام : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ [الأنعام : ٤٠ — ٤١] .

فذم الله سبحانه حزبين : حزباً لا يدعونه في الضراء ، ولا يتوبون إليه .. وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه ، فإذا كشف الضر عنهم : أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان ، كالمعطلة والمشركة :

حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعوا الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولآ إذ جآءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ [الأنعام : ٤٢ — ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ لقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ [المؤمنون : ٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ أو لا يرون أنهم يفتون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون . ولا هم يذكرون ﴾ [التوبة : ١٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ [السجده : ٢١] .

وحزب يتضرعون إليه في حال الضراء ، ويتوبون إليه ؛ فإذا كشفها عنهم أعرضوا عنه ، كما قال تعالى :

﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مَرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ [يونس : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ [الإسراء : ٦٧] .

وقال في المشركين ما تقدم : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تَجْئَرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ [النحل : ٥٣ ـــ ٥٤]

والممدوح : هو القسم الثالث .. وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه ، ويثبتون على عبادته ، والتوبة إليه في حال السراء ؛ فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء . وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام . .

قال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـــ ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب . قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ [صٓ : ٣٤ ـــ ٣٥] .

وقال تعالى ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال

أكفلنيها وعزني في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [صٓ : ٢١ — ٢٥] .

وقال تعالى عن آدم وحواء : ﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف : ٢٢ — ٢٣] .

وقال : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[البقرة : ٣٧] .

* * *

[تفسير قوله تعالى « وكأين من نبي قاتل ... »]

وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ [آل عمران : ١٤٦ — ١٤٨] .

وقوله « قاتل » أي النبي قاتل .. هذا أصح القولين .

وقوله « معه ربيون كثير » جملة في موضع الخبر ، صفة للنبي ــ صفة بعد صفة ــ اي كم من نبي معه ربيون كثير قاتل ، ولم يقاتلوا معه ، فإنه كان يكون المعنى : أنه وهم معه ، والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل في الجملة ، وأولئك الربيون ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .

و« الربيون » الجموع الكثيرة ، وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى هو الذي يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أَفَإِنْ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي ﷺ ، وقال : ﴿ من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت ﴾[1] .

فإنه عند قتل النبي أو موته ، تحصل فتنة عظيمة للناس ــ

---

(١) **صحيح** .
رواه البخاري (١٢٤١) (١٢٤٢) (٣٦٦٧) (٣٦٦٨) (٤٤٥٢) (٤٤٥٤) ، ابن ماجه (١٦٢٧) ، أحمد (٦ / ٢٢٠) عن عائشة رضي الله عنها .

المؤمنين والكافرين ـــ وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقى يقوم دينه ، وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك .

فأخبر الله تعالى أنه كم من نبي قتل ؟ فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء ، والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال ، بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير ، فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب ؛ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ، وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا ، ولا ينكلوا عن الجهاد .. قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ [الحجرات : ١٥] .. وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين ، سألوا ربهم مايفعل لهم في أنفسهم من التثبيت ، وما يعطيهم من عنده من النصر ، فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله ، وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم : قال تعالى لما أنزل الملائكة : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال : ١٠] .. وقال تعالى : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ [آل عمران : ١٤٨] .

وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان ــ وإن كانت بقضاء الله وقدره ــ وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لا يتوكل إلا عليه وحده ؛ فلا يأتي بالحسنات إلا هو ؛ فأوجب ذلك للعبد توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والإستغفار من الذنوب .

* * *

[أدعية الرسول ﷺ جامعة لكل أمور التوحيد]

وهذه الأمور كان النبي ﷺ يجمعها في الصلاة . كما ثبت عنه في الصحيح : أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : « ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ؛ أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » .. فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى ، وبيان أنّ حمده أحق ما قاله العبد ، ثم يقول بعد ذلك : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[1] .

وهذا تحقيق لوحدانيته :

لتوحيد الربوبية ، خلقاً ، وقدرا ، وبداية ، وهداية .. هو

(١) **صحيح** .

تقدم تخريجه .

المعطي المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع .

ولتوحيد الإلهية ، شرعاً ، وأمراً ، ونهياً . وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختاً ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » أي لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه . ولهذا قال : « لا ينفعه منك » ، ولم يقل : « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره. فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء ؛ فقد يظن ذو الجد الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده أنه كذلك فقال « ولا ينفع ذا الجد منك » ضمن « ينفع » معنى « ينجي ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب ؛ بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله ، ولا ينفعه جده منك ، فلا ينجيه ولا يخلصه .

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، وقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ [هو : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [هود : ٨٨] ، وقوله : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ [المزمل : ٨ — ٩] .

فقوله : ﴿ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ﴾ توحيد الربوبية الذي يقتضي أنه سبحانه هو الذي يسأل ويدعي

ويتوكل عليه وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه ، كما يحتج به في القرآن على المشركين .

فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد — توحيد الربوبية — ومع هذا يشركون بالله ، فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله ، ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه ، فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال تعالى :

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر :٣] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ [الأحقاف : ٢٧ — ٢٨] .

وهذا التوحيد ، هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن لا نعبده إلا بما أحبه ومارضيه . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله — صلوات الله عليهم . فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما . وهو يتضمن أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيه غيره ، بل يقتضي أن يكون رسوله ﷺ أحب إليه من نفسه . فإذا كان الرسول — لأجل أنه رسول الله —

يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه ، فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟ .

وفي صحيح البخاري أن عمر قال : « يا رسول الله ، والله إنك لأحب إلي من كل شيء ، إلا من نفسى ، فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فوالذي بعثك بالحق ، إنك لأحب إلى من نفسي . قال : الآن يا عمر »[1] .

وقد قال تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ [الأحزاب : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤] .

---

(١) **صحيح** .
أخرجه البخاري فى « صحيحه » (٦٦٣٢) عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يارسول الله ، لأنت أحب ... فذكره .
وأخرجه أحمد بن حنبل (٤ / ٢٣٣ ، ٥ / ٢٩٣) ، والحاكم فى « المستدرك » (٣ / ٤٥٦) ، ويعقوب الفسوي في « المعرفة » (١ / ٢٤٥ ـــ ٢٤٦) من هذا الطريق أيضا ولكن فى رجال إسناده ابن لهيعه ، وقد تكلموا فيه .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد في سبيله ، أحب إلى العبد من الأهل والمال .. على اختلاف أنواعه ـــ فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

فهذا التوحيد ـــ توحيد الإلهية ـــ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور . ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، إلا الله وحده ؛ فيقتضي أن لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به ، كما قال تعالى في النوعين : ﴿ إياك نعبد وإياك نستيعن ﴾ ، وقال : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ [هود : ١٢٣] .

وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة ؛ فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

أما توحيد الربوبية ، فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ، ويحبونهم كما يحبونه . فكان ذلك التوحيد ـــ الذي هو توحيد الربوبية ـــ حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو ؛ فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ؟ !

[حقيقة الشفاعة]

فإن قالوا : ليشفع . فقد قال الله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . فلا يشفع من له شفاعة ــ من الملائكة والنبيين ــ إلا بإذنه . وأما قبورهم وما نصب عليهم من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم التي مثلت على صورهم ، مجسدة أو مرموقة ــ فجعل الإستشفاع بها إستشفاعاً بهم ؛ فهذا باطل عقلا وشرعاً ؛ فإنها لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التي عملت للكواكب والجن والصالحين وغيرهم .

وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، فما بقي الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق ؛ فإن المخلوق يشفع عنده نظيره ، أو من هو أعلى منه ، أو دونه ، بدون إذن المشفوع إليه . ويقبل المشفوع إليه ، ولا يرد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه ، وإما لرهبته منه ، وإما لمحبته إياه ، وإما للمعارضة بينهما والمعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتكون شفاعة الشفيع ، هي التي حركت إرادة المشفوع إليه ، وجعلته مريداً للشفاعة ، بعد أن لم يكن مريداً لها ، كأمر الآمر الذي يؤثر في المأمور ، فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريداً لفعله . وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق ، فإنه قد يكون محركا له إلى فعل ما سأله .

فالشفيع كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه . فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلا للمطلوب ؛ فقد شفع الطالب والمطلوب . والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد ؛ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فالأمر كله إليه وحده، فلا شريك له بوجه ؛ ولهذا ذكر سبحانه نفي ذلك في آية الكرسي ، التي فيها تقرير التوحيد ، فقال : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وسيد الشفعاء ﷺ يوم القيامة ، إذا سجد وحمد ربه ، يقال له : « إرفع رأسك ، وقل تُسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فيحد له حداً . فيدخلهم الجنة »[1] .

فالأمر كله لله ، كما قال : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ [آل عمران : ١٥٤] . .

وقال لرسوله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [آل عمران : ١٢٨] . .

وقال : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : ٥٤] . .

فإذا كان لايشفع عند الله أحد إلا بإذنه ، فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة .. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « إشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان

---

(١) **صحيح** .سبق تخريجه .

نبيه ما شاء »[1] .

وإذا دعاه الداعي ، وشفع عنده الشفيع ، فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة — لم يكن هذا مؤثراً فيه ، كما يؤثر المخلوق في المخلوق ؛ فإنه سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ، ثم أثابه عليه ، وهو الذي وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات ، بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعله سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخلوقات .. قال يحي بن سعيد القطان : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية ؛ فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث ، ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه لزمهم أن

(١) **صحيح** .
رواه البخاري (١٤٣٢) (٦٠٢٧) (٦٠٢٨) (٧٤٧٦) ، ومسلم (٢٦٢٧) ، وأبو داود (٥١٣١) ، والترمذي (٢٦٧٢) والنسائي (٥ / ٧٧ — ٧٨) ، وأحمد (٤ / ٤٠٠ ، ٤٠٩) عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه السائل أو طلب إليه حاجة قال ... فذكره . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح » .

يكون العبد قد جعل ربه فاعلا لما لم يكن فاعلا له ، فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلا للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلا للشفاعة .

وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه .

[معنى « إذن الله »]

فإن « الإذن » نوعان :
إذن بمعنى المشيئة والخلق .
وإذن بمعنى الإباحة والإجازة .

فمن الأول : قوله في السحر : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ [البقرة : ١٠٢] . فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته ، وإلا فهو لم يبح السحر . والقدرية تنكر هذا « الإذن » . وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله . وكذلك قوله : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ [آل عمران : ١٦٦] فإن الذي أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة ، إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثاني : قوله ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ــ ٤٦] .. وقوله : ﴿ ما قطعتم من لِينَةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ [الحشر : ٥] . فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ،

ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة ٢٥٥] هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه ، ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر ؛ فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئاً لها ؛ فعنده كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار ؛ فهو عندهم بغير إذنه ، لا هذا الإذن ولا هذا الإذن ، فإنه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين ، وعندهم أنه لم يشأه ، ولم يخلقه ، بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقِرُّون بالقدر ، يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدري ، وإن لم يأذن لهم إباحة وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر ، مثل كثير من النصارى ، يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لا قدري ولا شرعي .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدري . ومن سأل الله بغير إذنه الشرعي ، فقد شفع عنده بغير إذن قدري ولا شرعي .

فالداعي المأذون له في الدعاء ، مؤثر في الله عندهم ،

ولكن بإباحته والداعي غير المأذون له ، إذا أجاب دعاه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهذا الإذن ، ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره .. والله تعالى يقول : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعي ، وإن كان خالقاً لفعله : كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة إبراهيم لأبيه ، «وشفاعة النبي ﷺ لعبد الله بن أبيّ بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته »[1] .. وقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] قد قلتم : إنه يعم النوعين ، فإنه لو أراد الإذن القدري ، لكان كل شفاعة داخلة في ذلك ، كما يدخل في ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعي فقط ، لزم قول القدرية ، وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعي ؟

قيل : المنفي من الشفاعة بلا إذن ، هي الشفاعة التامة ، وهي المقبولة ، كما في قول المصلي : « سمع الله لمن

---

(١) **صحيح** .

رواه البخاري (١٢٦٩) (٤٦٧٠) (٤٦٧١) (٥٧٩٦) ، مسلم (٢٤٠٠) (٢٧٧٤) ، الترمذي (٣٠٩٨) النسائي (٤ / ٣٦ — ٣٧) ، ابن ماجه (١٥٢٣) وأحمد (٢ / ١٨) عن ابن عمر رضي الله عنه .

ورواه النسائي (٤ / ٦٧ — ٦٨) ، الترمذي (٣٠٩٧) وأحمد (١ / ١٦) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

حمده » ، أي استجاب له . وكما في قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : ٢] ، وقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات : ٤٥] ، وقوله : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق : ٤٥] ، ونحوذلك . فإن الهدى ، والإنذار ، والتذكير ، والتعليم ، لا بد فيه من قبول المتعلم . فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود ، وإلا قيل : علمته فلم يتعلم . كما قيل : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [فصلت : ١٧] ، فكذلك الشفاعة .

فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع إليه ، وهي الشفاعة التامة ؛ فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه . وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته — كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والإستغفار منها ، كما قال نوح : ﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ [هود : ٤٧] .. وكما نهى الله النبي ﷺ عن الصلاة على المنافقين . وقال له : ﴿ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [التوبة : ٨٤] .. وقال له : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ [المنافقون : ٦] .. ولهذا قال على لسان المشركين : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ [الشعراء : ١٠٠ — ١٠١] .

فالشفاعة المطلوبة ، هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته ، وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً ،

فلا بد أن يأذن فيها ، ولا بد أن يجعل العبد شافعاً ؛ فهو الخالق لفعله ، والمبيح له . كما في الداعي ، هو الذي أمره بالدعاء ، وهو الذي يجعل الداعي داعياً ؛ فالأمر كله لله خلقاً وأمرا .. كما قال : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : ٥٤] .. وقد روي في حديث ــ ذكره ابن أبي حاتم وغيره ــ أنه قال : « فمن يثق به فليدعه » ، أي فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

ولما كان المراد بالشفاعة المنفية ، هي الشفاعة المطلقة ، وهي المقصود بالشفاعة ، وهي المقبولة ، بخلاف المردودة ؛ فإن أحداً لا يريدها ، لا الشافع ، ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه . ولو علم الشافع والمشفوع له أنها ترد لم يفعلوها . والشفاعة المقبولة هي النافعة ، بيَّن ذلك في مثل قوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ [سبأ : ٢٣] ، وقوله : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ [طه : ١٠٩] ؛ فنفي الشفاعة المطلقة ، وبيَّن أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له ، وهو الإذن الشرعي ، بمعنى أباح له ذلك وأجازه .. كما قال تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ [الحج : ٣٩] ، وقوله : ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، وقوله : ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ [النور : ٥٨] ، ونحو ذلك .

وقوله : ﴿ إلا لمن أذن له ﴾ ، هو إذن للمشفوع له ، فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه . .

قال تعالى : ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ [طه : ١٠٨ ـــ ١٠٩] .

وفيه قولان :

وقيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ، فهو الذي تنفعه الشفاعة .

وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين ، لا يذكرون غيره ، لأنه لم يقل : « لا تنفع إلا من أذن له » ولا قال « لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » ، بل قال : ﴿ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له ﴾ ، فهي لا تنفع ، ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم .. كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ [سبأ : ٢٣] . ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له ، بل لو أريد هذا ، لقيل : لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال ﴿ لمن أذن له ﴾ وهو المشفوع له ، الذي تنفعه الشفاعة .

وقوله ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ ، لم يعد إلى « الشفعاء » ، بل عاد إلى المذكورين في قوله ﴿ وما لهم فيهما من شرك . وما له منهم من ظهير ﴾ . ثم قال ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده ﴾، ثم بين أن هذا منتف « حتى إذا فزع عن قلوبهم ، قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » ، فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يفزع

عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟ وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع . فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط ، فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ؛ إذ قد يأذن له إذناً خاصاً . وهكذا قال غير واحد من المفسرين ، قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين .

وكذلك قال السلف في هذه الآية :

قال قتادة في قوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ [طه : ١٠٩] قال : كان أهل العلم يقولون : إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى عنه : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ [طه : ١٠٩] هو شفاعته يوم القيامة .. وقوله ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ إن الله يُشَفِّعُ المؤمنين بعضهم في بعض .

قال البغوي : « إلا من أَذِن له الرحمن » أذن الله له أن يشفع له « ورضي له قولا » أي ورضي قوله .. قال ابن عباس : يعني قال ﴿ لا إله إلا الله ﴾ . قال البغوي : فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القولين في قوله تعالى ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

وقدم طائفة هناك أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا . منهم البغوي ، فإنه لم يذكر هنا في

الإستثناء إلا المشفوع له ، وقال هناك : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ في الشفاعة ، قاله تكذيباً لهم ، حيث قالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : ١٨] ، قال : يجوز أن يكون المعني : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين في قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق ﴾ [الزخرف : ٨٦] .. وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ، ونبيِّن أن الإستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية .. وهو يعم النوعين . وذلك أنه سبحانه قال : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ . و« الشفاعة » مصدر شفع شفاعة ، والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى محل الفعل تارة . ويماثله الذي يسمى لفظه « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة إلى المعلوم . فالأول : كقوله ، ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقوله ﴿ أنزله بعلمه ﴾ [النساء : ١٦٦] ، وقوله : ﴿ إنما أنزل بعلم الله ﴾ [هود : ١٤] ، ونحوذلك ، والثاني : كقوله ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ [لقمان : ٣٤] ، فالساعة هنا معلومة ، لا عالمة .. وقوله حين قال فرعون : ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ قال موسى : ﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ [طه : ٥١ — ٥٢] .

فالشفاعة مصدر لا بد لها من شافع ومشفوع له . والشفاعة تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له . فإذا قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء ، والشفاعة للمذنبين .

فقوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يتناول النوعين : من أذن له الرحمن ورضي له قولا من الشفعاء ، ومن أذن له الرحمن ورضي له قولا من المشفوع له . وهي تنفع المشفوع له ؛ فتخلصه من العذاب ، وتنفع الشافع ؛ فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له : ﴿ إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ [النبأ : ٣٨] .. فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضي قولهم ، هم الذين يصل لهم نفع الشفاعة . وهذا موافق لسائر الآيات .. فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه ، كقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ . وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق ، كقوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ ، ثم قال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صوابا . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لا ينفع الزرع إلا في وقته ؛ فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ ، والإستثناء مفرغ ، فإنه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا ، وإنما قال :

﴿ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ﴾ ، فإذا لم يكن في الكلام حذف ، كان المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له . وإن جعل فيه حذف ـــ تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن ـــ كان المصدر مضافاً إلى نوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف إلى بعضهم ، لكونه شافعاً، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، أي من يؤمن .. ﴿ مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق ﴾ [البقرة : ١٧١] ، أي مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أي الذي ينعق به .. والمعنى في ذلك كله ظاهر معلوم . فلهذا كان من أفصح الكلام إيجازه ، دون الإطناب فيه .

وقوله : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ إذا كان من هذا الباب ، لم يحتج أن الشافع تنفعه الشفاعة ، وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفي الآية الأخرى ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ من هؤلاء وهؤلاء .

لكن قد يقال : التقدير : لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه ، فيكون الإذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو لا تنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء ، فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين . فالشافع ينتفع بالشفاعة ، وقد يكون

انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « إشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء »[1] .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمداً ﷺ ، هو الشفاعة التي يختص بها ، وهي المقام المحمود ، الذي يحمده به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لا تحتاج الآية إلى حذف ، بل يكون معناها : يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا .

ولذلك جاء في الصحيح : أن النبي ﷺ قال : « يا بني عبد مناف ، لا أملك لكم من الله من شيء . يا صفية عمة رسول الله ﷺ ، لا أملك لك من الله من شيء . ياعباس عم رسول الله ، لاأملك لك من الله من شيء »[2] .

---

(١) **صحيح** .سبق تخريجه .

(٢) **صحيح** .

أخرجه البخاري (٣٥٢٧) ، مسلم (٢٠٥) (٢٠٦) ، الترمذي (٣١٨٥) ، النسائي (٦ / ٢٤٨ ، ٢٤٩ — ٢٥٠) ، أحمد (٢ / ٣٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، ٣٩٩ ، ٤٢٦ ، ٥١٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ « أن أبا هريرة : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه وأنذر عشيرتك الأقربين » يامعشر قريش إشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً يابني عبد المطلب ! لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً .

وفي الصحيح أيضاً : « لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار ، أو رقاع تخفق ، فيقول : أغثني ، أغثني . فأقول : قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شيء »[1] .

فيعلم من هذا أن قوله : ﴿ ولا يملكون من دونه الشفاعة ﴾ و ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ على مقتضاه ؛ وأن قوله في الآية : ﴿ لا يملكون منه ﴾ كقوله ﷺ : « لا أملك لكم من الله من شيء » ، وهو كقول إبراهيم لأبيه : ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ [الممتحنة : ٤] . وهذه الآية تشبه قوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون

يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً . وروى نحوه الترمذي (٢٣١٠) ، أحمد (٦ / ١٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(١) **صحيح** .
رواه البخاري (١٤٠٢) (٣٠٧٣) ، مسلم (١٨٣١) ، أحمد بن حنبل (٢ / ٤٢٦) ، النسائي (٥ / ٢٣ ــ ٢٤) عن أبي هريرة قال « قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره وقال : لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة يقول : يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك وعلى رقبته بعير له رغاء يقول : يارسول الله أغثني فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . وعلى رقبته صامت فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك أو على رقبته رِقاع تخفق فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . والسياق للبخاري » .

منه خطاباً . يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ [النبأ : ٣٧ — ٣٨] . فإن هذا مثل قوله : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ ؛ ففي الموضعين : إشترط إذنه ، فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ، ومن قال الصواب رضي الله قوله ؛ فإن الله إنما يرضى بالصواب .

وقد ذكروا في تلك الآية قولين :

أحدهما : أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لا يملكون شفاعة إلا بإذنه .

والثاني لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لا يملكون منه خطاباً » ، قال : كلاما . هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم — أو أعلم — التابعين بالتفسير .

قال الثوري : إذا جاء التفسير عن مجاهد ، فحسبك به ، وقال : عرضت المصحف على ابن عباس ؛ أقفه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه إعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفي قوله ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ لم يذكر إستثناء ؛ فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً ؛ إذ المخلوق لا يملك

شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه في قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ أن هذا عام مطلق . فإن أحداً ، ممن يدعي من دونه ، لا يملك الشفاعة بحال ؛ ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكا لهم . وكذلك قوله ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ .

هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار ، لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم .

قال ابن عطية : قوله « لا يملكون » الضمير للكفار ، أي لا يملكون من إفضاله وإكماله أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها .

وهذا مبتدع . وهو خطأ محض . والصحيح : قول الجمهور والسلف أن هذا عام ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ [طه : ١٠٨] .. وفي حديث التجلي الذي في الصحيح ـــ لما ذكر مرورهم على الصراط ـــ قال ﷺ : « ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل : اللهم سلم سلم »[1] فهذا في وقت المرور على الصراط ، وهو بعد الحساب والميزان ، فكيف بما قبل ذلك ؟

---

(١) صحيح .

أخرجه البخاري (٨٠٦) (٧٤٣٧) ، أحمد بن حنبل (٢ / ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٥٣٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً به .

وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولي العزم ، وكل يقول « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني فعلت كذا وكذا ، نفسي ، نفسي ، نفسي »[1] ، فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة ، فكيف بغيرهم ؟

وأيضا ، فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين ، فقال : ﴿ إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا ﴾ [النبأ : ٣١ ـــ ٣٧] .. ثم قال : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ [النبأ : ٣٨] . فقد أخبر أن « الروح والملائكة » يقومون صفاً ، لا يتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ . والعرب تقول : ما أملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً : أي لا أقدر من أمره على شيء . وغاية مايقدر عليه الإنسان من أمر غيره خطابه ولو بالسؤال .

---

(١) **صحيح** .

رواه البخاري (٣٣٤٠) (٣٣٦١) (٤٧١٢) ، مسلم (١٩٤) ، الترمذي (٢٤٣٤) وقال الترمذي حسن صحيح . وأحمد بن حنبل (٢ / ٤٣٥ ، ٤٣٦) . (حديث الشفاعة) عن أبي هريره رضى الله عنه .

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ، ولا الخطاب ؛ فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا .. قال تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾ [الممتحنة : ٤] . فقد أخبر الخليل أنه لايملك لأبيه من الله من شيء ، فكيف غيره ؟

وقال مجاهد أيضاً « إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » قال : حقاً في الدنيا ، وعمل به . رواه ـــ والذي قبله ـــ عبد بن حميد . وروي عن عكرمة : « وقال صواباً » قال : الصواب قول : لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .

وقوله في سورة طه : ﴿ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ . فإذا جعلت هذه مثل تلك فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة . وهي الشفاعة في الحسنات وفي دخول الجنة ، كما في الصحيحين : « يُجْمَعُ المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يريحنا من مقامنا هذا »[1] فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم .

وفي حديث الشفاعة : « أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن »[1] ، فهذه شفاعة أهل الجنة . ولهذا

(١) **صحيح** . تقدم تخريجه (حديث الشفاعه) .

قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد ﷺ ، ويشفع غيره في العصاة .

فقوله : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ﴾ يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموماً ، وفي أهل الجنة ، وفي المستحقين للعذاب . وهو سبحانه في هذه وتلك لم يذكر العمل ، إنما قال : « وقال صواباً » وقال : « ورضي له قولا » لكن قد دل الدليل على أن « القول الصواب المرضي » لا يكون صاحبه محموداً ألا مع العمل الصالح ، لكن نفس القول مرضي ؛ فقد قال الله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ . [فاطر ١٠]

وذكر البغوي ، وأبو الفرج بن الجوزي ، وغيرهما ، في قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ قولين ، أحدهما : أن المستثنى هو الشافع ، ومحمل « من » الرفع . والثاني : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : في معنى الآية قولان ، أحدهما : أنه أراد ب « الذين يدعون من دونه » آلهتهم ، ثم استثني عيسى وعزيراً والملائكة ، فقال : « إلا من شهد بالحق » وهو شهادة أن لا إله إلا الله « وهم يعلمون » بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم . قال : هذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثاني : أن المراد ب « الذين يدعون » عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدهم المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة

لأحد « إلا من شهد بالحق » وهي كلمة الإخلاص « وهم يعلمون » أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوي : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق » هم عيسى وعزير والملائكة ؛ فإنهم عُبِدوا من دون الله ، ولهم الشفاعة . وعلى هذا تكون « من » في محل رفع . وقيل « من » في محل خفض وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعني أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبي حاتم ، روي بإسناده المعروف عن مجاهد ــ على شرط الصحيح ــ عن مجاهد قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » عيسى وعزيراً والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة « إلا من شهد بالحق » يعلم الحق . هذا لفظه . جعل « شفع » متعدياً بنفسه .

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوي ، فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الأسم . ويكون على هذا يقال : شفعته ، وشفعت له ، كما يقال : نصحته ، ونصحت له . و« شفع » أي صار شفيعاً للطالب أي لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » أن الله ربهم .

وروي بإسناده عن قتادة : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الملائكة وعيسى وعزير ، أي أنهم قد عُبِدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيح ، لكن التحقيق في تفسير الآية : أن الإستثناء منقطع ، ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً ، لا يستثنى من ذلك أحد عند الله ؛ فإنه لم يقل : ولا يشفع أحد ، ولا قال : لا يشفع لأحد ، بل قال : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ ، وكل من دُعِيَ من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة . والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عُبِد من دون الله . وسيد الشفعاء ﷺ لم يُعبد كما عُبِد المسيح ، وهو ـــ مع هذا ـــ له شفاعة ، ليس لغيره ؛ فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله من لم يدع .

فمن جعل الإستثناء متصلا ، فإن معنى كلامه : أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق ، وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه ، وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

وأيضاً فقوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ يتناول كل معبود من دونه ، ويدخل في ذلك الأصنام ؛ فإنهم كانوا يقولون :هم يشفعون لنا .. قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون

هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ . [يونس : ١٨]

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان في إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم ، وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتاده . فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء ، كان في هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين . والقرآن كله يبطل هذا المعنى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[النجم : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ [الأنبياء : ٢٦ــ ٢٨] فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب ؛ فعلم أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

وأيضاً ، فإن القرآن إذا نفى الشفاعة من دونه ــ نفاها مطلقا ؛ فإن قوله « من دونه » إما أن يكون متصلا بقوله « يملكون » أو بقوله « يدعون » أو بهما ، فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه ، أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا . وهذا أظهر ؛ لأنه قال « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » ، فأخر « الشفاعة » وقدم « من دونه » .

ومثل هذا كثير في القرآن « يدعون من دون الله » و « يعبدون من دون الله » كقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ [يونس : ١٨] ، وقوله : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ . [يونس : ١٠٦]

بخلاف ما إذا قيل ، لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه ؛ فإن هذا لا نظير له في القرآن ، واللفظ المستعمل في هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك . لا يقال في هذا المعنى « من دونه » ؛ فإن الشفاعة هي من عنده . فكيف تكون من دونه ؟ لكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه . وأيضاً ، فإذا قيل « الذين يدعون » مطلقاً دخل فيه الرب تعالى ؛ فإنهم كانو يدعون الله ، ويدعون معه غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ . [الفرقان : ٦٨]

والتقدير الثالث لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه ، وهذا أجود من الذي قبله ، ولكن يَرِدُ عليه ما يرد على الأول .

ومما يضعفهما أن « الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها ، بل قال : « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » ، فنفى ملكهم الشفاعة مطلقا . وهذا هو الصواب ، وأن كل من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ؛ فإن الملك للشيء هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته ، والرب تعالى لا يشفع أحد من عنده إلا بإذنه فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال ، ولا يقال

في هذا « إلا بإذنه » ، إنما يقال ذلك في الفعل ؛ فيقال : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ .

وأما في الملك ، فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها ؛ فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكا لها ؛ بل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً ، وهذا كما قال : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ . [سبإ : ٢٢]

فنفى الملك مطلقا .

فنفى نفع الشفاعة إلاَّ لمن استثناه ، لم يثبت أن مخلوقا يملك الشفاعة ؛ بل هو سبحانه له الملك وله الحمد ، لا شريك له في الملك ؛ قال تعالى :

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذي له ملك السموات والأرض . ولم يتخذ ولداً . ولم يكن له شريك في الملك . وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ . [الفرقان : ١ـ ٣]

ولهذا ، لما نفى الشفعاء من دونه ، نفاهم نفياً مطلقا بغير إستثناء . وإنما يقع الإستثناء إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه .. كما قال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ . [الأنعام : ٥١]

وكما قال تعالى : ﴿ وذكِّر به أن تُبْسَلَ نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ﴾ . [الأنعام : ٧٠]

وكما قال تعالى : ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ . [السجدة : ٤]

فلما قال « من دونه » نفى الشفاعة مطلقا . وإذ ذكر « لم يقل « من دونه » ، كقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقوله : ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ . [يونس : ٣]

فمن تدبر القرآن تبين له أنه كما قال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ، كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ [الزمر : ٢٣] ، يشبه بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا . ليس بمختلف ولا بمتناقض : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ . [النساء : ٨٢]

وهو « مثاني » يثني الله فيه الأقسام ، ويستوفيها . والحقائق : إما متماثلة ، وهو المتشابه . وإما مماثلة ، وهي الأصناف والأقسام والأنواع ، وهي المثاني والتثنية يراد بها : جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين فقط . كما في قوله تعالى : ﴿ إرجع البصر كرتين ﴾ [الملك : ٤] ، يراد به : مطلق العدد كما تقول : قلت له مرة بعد مرة تريد جنس العدد ، وتقول : هو يقول كذا ، ويقول كذا ، وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه :

« جعل يقول بين السجدتين : رب اغفر لي ، رب اغفر لي »[1] لم يرد : أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثني هذا القول ، ويعدده ، ويكرره ،كما كان يثني لفظ التسبيح . وقد قال حذيفة رضي الله عنه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : « إنه ركع نحواً من قيامه ، يقول في ركوعه : سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم »[2] ، وذكر : « أنه سجد نحواً من قيامه ، ويقول في سجوده : رب اغفر لي . رب اغفر لي »[1] . وقد صرح في

(١) **صحيح** .

رواه أبو داود (٨٧٤) ، النسائى (٢ / ١٩٩ ــ ٢٠٠) وأحمد (٥ / ٣٩٨ ، ٤٠٠) عن حذيفه بن اليمان رضى الله عنه أنه رأى رسول الله يُصلى الله عليه وسلم صلى من الليل فكان يقول الله أكبر ثلاثاً ، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه وكان يقول فى ركوعه سبحان ربي العظيم ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه يقول لربيَ الحمد ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه فكان يقول في سجوده سبحان ربي الأعلى ثم رفع رأسه من السجود وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده وكان يقول رب اغفر لي . رب اغفر لي فصلى أربع ركعات فقرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام » .

(٢) **صحيح** :

رواه مسلم (٧٧٢) ، ابن ماجه (٨٨٨) ، الترمذي (٢٦٢) ، والطيالسي فى « مسنده » (٤١٥) ، والنسائي (٢ / ٢٢٤) (٢ / ١٩٠) وأحمد (٥ / ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤) عن حذيفة بن =

الحديث الصحيح : « أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران » ، فإنه قام بهذه السور كلها ، وذكر أنه كان يقول سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم . سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي الأعلى »[1] .

= اليمان رضي الله عنه قال صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة . فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة فمضى . فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم أفتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً إذا مر بآيه فيها تسبيح سبح . وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ ثم ركع فجعل يقول « سبحان ربى العظيم فكان ركوعه نحواً من قيامه ثم قال . سمع الله لمن حمده ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ثم سجد فقال : سبحان ربي الأعلى . فكان سجوده قريباً من قيامه » . والسياق لمسلم .

(١) **صحيح** .

رواه أبو داود (٨٧٤) ، النسائى (٢ / ١٩٩ — ٢٠٠) وأحمد (٥ / ٣٩٨ ، ٤٠٠) عن حذيفه بن اليمان رضى الله عنه أنه رأى رسول الله يُصلى الله عليه وسلم صلى من الليل فكان يقول الله أكبر ثلاثاً ، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه وكان يقول فى ركوعه سبحان ربي العظيم ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه يقول لربيَ الحمد ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه فكان يقول فى سجوده سبحان ربي الأعلى ثم رفع رأسه من السجود وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده وكان يقول رب اغفر لي . رب اغفر لي فصلى أربع ركعات فقرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام » .

فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ جنس التعداد والتكرار ، لا الإقتصار على مرتين ؛ فإن « الإثنين » أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعني أنه عدد هذا اللفظ لم يقتصر على مرة واحدة ، فالتثنية التعديد ، والتمديد يكون للأقسام المختلفة .

وليس في القرآن تكرار محض ، بل لا بد من فوائد في كل خطاب .

فـ « التشابه » في النظائر المتماثلة .

و « المثانى » في الأنواع .

وتكون التثنية فى المتشابه ، أي هذا المعنى قد ثني في القرآن لفوائد أخر .

فـ « المثاني » تَعُمُّ هذا وهذا ، وفاتحة الكتاب هي « السبع المثاني » لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

* * *

[الشفاعه لأهل «لا إله إلاّ الله]

والمقصود هنا : أن قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » ، قد تم الكلام هنا ؛ فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة . ثم استثنى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » ، فهذا استثناء منقطع ، والمنقطع يكون بالمعنى المشترك بين المذكورين . فلما نفى ملكهم الشفاعة ، بقيت الشفاعة بلا مالك لها . كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل

يشفعون في أحد ؟ فقال : نعم « من شهد بالحق وهم يعلمون » . وهذا يتناول الشافع والمشفوع له ؛ فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . فالملائكة والأنبياء والصالحون ــ وإن كانوا لا يملكون الشفاعة ــ لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا .

وهم لا يؤذن لهم إلّافي الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلّا الله ؛ فيشهدون بالحق وهم يعلمون .. لا يشفعون لمن قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيوخ ، كما جاء الحديث الصحيح : « أن الرجل يسأل في قبره ؟ ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبدالله ورسوله . جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته »[1] ؛ فلهذا قال : « إلا من شهد

(١) **صحيح** .
أخرجه البخاري (٨٦) (١٨٤) (٩٢٢) (١٠٥٣) ومسلم (٩٠٥) ، مالك في الموطأ (١٥٤ ــ ١٥٥) وأحمد بن حنبل (٦ / ٣٤٥) عن أسماء رضي الله عنها قالت خسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدخلت على عائشة وهي تصلي . فقلت ما شان الناس يصلون ؟ فأشارت برأسها إلى السماء . فقلت : آيه ؟ قالت : نعم . فأطال رسول الله صلى الله عليه وسلم القيام جداً حتى تجلاني الغشى . فأخذت قربة من ماء إلى جنبي فجعلت أصب على رأسي أو على وجهي من الماء قالت : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تجلت الشمس فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس . فحمدَ الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد ما من شيء لم أكن رأيته إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار . وإنه قد

بالحق وهم يعلمون » . وقد تقدم قول ابن عباس :يعني من قال « لا إله إلا الله » يعني : خالصاً من قلبه والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين أن الشفاعة إنما تكون في أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت في صحيح البخاري : أن أبا هريرة قال لرسول الله ﷺ : « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة ، لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدا أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة : من قال :« لا إله إلا الله » خالصاً من قبل نفسه »[1] .فبين أن المخلص لها من قبل نفسه ، هو أسعد

= أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً أو مثل فتنة المسيح الدجال (لا أدري أي ذلك قالت أسماء) فيؤتى أحدكم فيقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن (لا أدري أي ذلك قالت أسماء) فيقول هو محمد هو رسول الله . جاءنا بالبينات والهدى . فأجبنا وأطعنا . ثلاث مِرار فيقال له : نم قد كنا نعلم إنك لتؤمن به . فنم صالحاً . وأما المنافق أو المرتاب (لا أدري أي ذلك قالت أسماء) فيقول : لا أدري . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت » .

(١) **صحيح** .
أخرجه البخاري (٩٩) (٦٥٧٠) ، أحمد (٢ / ٣٧٣) عن أبي هريرة بنفس لفظ المصنف . كما رواه ابن حبان فى « صحيحه » (٨ / ١٣١) عن أبي هريرة بلفظ « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت يارسول الله ماذا رد إليك ربك فى الشفاعة ؟ قال والذى نفسى بيده لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي لما رأيت =

بشفاعته ﷺ من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا « أن لا إله إلا الله » ، كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم :﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ، قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . [آل عمران :١٨]

فإذا شهدوا وهم يعلمون ، كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ومشفوعا لهم ؛ فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال في الحديث الطويل حديث التجلي والشفاعة :« حتى إذا خلص المؤمنون من النار : فوالذي نفسي بيده ، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ، يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم . فتحرم صورهم على النار ـــ وذكر تمام الحديث [1] .

= من حرصك على العلم . والذى نفسي محمد بيده . لما يهمني من إنقصافهم على أبواب الجنة أهم عندي من تمام شفاعتي لهم وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وأن محمداً رسول الله يصدق لسانه قلبه وقلبه لسانه .

(١) **صحيح** .

رواه البخاري (٤٥٨١) (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) ، والترمذي =

وسبب نزول الآية ــ على ما ذكروه ــ مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج بن الجوزي : سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا : « إن كان ما يقول محمد حقاً . فنحن نتولى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمد ؛ فنزلت هذه الآية » ، قاله مقاتل .

وعلى هذا ، فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة ؛ فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم ، بالذي يوجب أن يشفعوا لكم ؛ فإن أحداً ممن يدعي من دون الله لا يملك الشفاعة ، ولكن : « من شهد بالحق وهم يعلمون » ، فإن الله يشفع فيه .

فالذى تنال به الشفاعة .هي الشهادة بالحق ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، لا تنال بتولِّي غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين . فمن والى أحد من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له ــ لم يغن ذلك عنه من الله شيئا . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره ؛ فإن الشفاعة إنما تكون لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك . فهذا القول والعبادة الذي يقصد به المشركون الشفاعة ــ يحرم عليهم الشفاعة .

= (٣١٤٨) ، وابن حبان (٩ / ١٢٣٤) ، أحمد (٣ / ١١ ، ١٦ ، ١٧) عن أبي سعيد الخدري .

فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ، ليشفعوا لهم ، كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذي به طلبوا شفاعتهم ، به -حرموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم ؛ لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا .

وكثير من أهل الضلال يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التي فيها شرك ، أو هي شرك خالص ، كما ظن ذلك المشركون الأولون ، وكما يظنه النصارى ومن ضل من المنتسبين إلى الإسلام ، الدين يدعون غير الله ، ويحجون إلى قبره أو مكانه ، وينذرون له ، ويحلفون به ، ويظنون أنه بهذا يصير شفيعا لهم .

قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه . فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته . ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ .

[الإسراء : ٥٦ــ ٥٧]

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة ، فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله . كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة . وهذا لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم ؛ ثم قال : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً » ، فبين أن هؤلاء المزعومين ، الذين يدعونهم من دون الله ، كان يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة ، كسائر

عباده المؤمنين . وقد قال تعالى :﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ٨٠]

وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت في غير هذا الموضع .

فكثير منهم يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره ، ويقولون : من كان أكثر صلاة على النبي ﷺ ، كان أحق بالشفاعة من غيره ، وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص ، وأكثر تعظيماً له ، كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط ؛ بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا ، يظنون أن من أحب أحدا من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه ـــ كان ذلك سبباً لشفاعته له .. وليس الأمر كذلك . بل الشفاعة ، سببها توحيد الله ، وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة ؛ فإن الشفاعة .. من الله مبدؤها ، وعلى الله تمامها ؛ فلا يشفع أحد إلا بإذنه ، وهو الذى يأذن للشافع ، وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له .

إنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته هم أهل التوحيد والإخلاص له ،

فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملا وبراءة ، وموالاة ومعاداة ـــ كان أحق بالرحمة .

والمذنبون ، الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فخفت موازينهم ، فاستحقوا النار ـــ من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » ، فإن النار تصيبه بذنوبه ، ويميته الله في النار إماتة ، فتحرقه النار إلا موضع السجود ، ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة ، ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبيَّن أن مدار الأمر كله على تحقيق كلمة الإخلاص ، وهي « لا إله إلا الله » ، لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهليون . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن النبي ﷺ كان يجمع بين « الحمد » الذي هو رأس الشكر ، وبين « التوحيد والإستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول : « ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد . أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ـــ وكلنا لك عبد ـــ : لا مانع لما أعطيت . ولا معطي لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[1] . ثم يقول :« اللهم طهرني بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس »[2] . كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري

(١) سبق تخريجه وهو صحيح .

(٢) قلت : بل هذا الدعاء موضعه بعد تكبيرة الإحرام كما ورد عن أبي
=

رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ ـــ إذا رفع رأسه من الركوع ـــ قال : اللهم ربنا الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من سيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ـــ وكلنا لك عبد ـــ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت : ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من سيء بعد . اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ »[1] .

= هريرة رضي الله عنه أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر في الصلاة سكت هنيه قبل أن يقرأ فقلت يارسول الله ! بأبى أنت وأمي أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءه ما تقول ؟ قال : أقول : اللهم باعد ... فذكره » .

والحديث صحيح . أخرجه البخاري (٧٤٤) ومسلم (٥٩٨) ، وأبو داود (٧٨١) والنسائي (٢ / ١٢٨ ـــ ١٢٩) ، وابن ماجه (٨٠٥) ، وأحمد بن حنبل (٢ / ٢٣ ، ٤٩٤) .

(١) **صحيح .**

أخرجه مسلم (٤٧٦) (٤ ـــ ٢) ، والنسائى ، والترمذى وأحمد ابن حنبل (٤ / ٣٥٤ ، ٣٨١) .

وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد روى مسلم في صحيحه أيضاً عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « اللهم لك الحمد » ، وقال « وملء الأرض ، وملء ما بينهما »[1] .

ولم يذكر في بعض الروايات « ما بينهما » لأن « السموات والأرض » قد يراد بها العلو والسفل مطلقاً ، فيدخل في ذلك الهواء وغيره ؛ فإنه عال بالنسبة إلى ما تحته ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه ؛ فقد يجعل من السماء ، كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء ..وكذا قال في القرآن : ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ [الحديد : ٤] ولم يقل « وما بينهما » كما يقول :﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ . [السجدة : ٤]

---

(١) **صحيح** .

أخرجه مسلم (٤٧٦) ، وابن ماجه (٨٧٨) عن عبد الله بن أبي أوفى .

ورواه مسلم (٤٧٨) ، النسائي (٢ / ١٩٨) عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم (٤٧١) عن البراء .

وأخرجه مسلم (٧٧١) ، الترمذي (٢٦٦) ، (٣٤٢١) (٣٤٢٢) وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح عن علي .

وأخرجه النسائي (٢ / ١٩٩) عن أبي سعيد .

وأخرجه النسائي (٢ / ١٩٩ ــ ٢٠٠) عن حذيفة .

فتارة يذكر قوله ﴿ وما بينهما ﴾ فيما خلقه في ستة أيام ، وتارة لا يذكره . وهو مراد ، فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل في لفظ ﴿ السموات والأرض ﴾ . ولهذا كان النبي ﷺ تارة يقول : « ملء السموات وملء الأرض » ولا يقول « وما بينهما » ، وتارة يقول « وما بينهما » وفيها كلها « وملء ما شئت من شيء بعد » . وفي رواية أبي سعيد « أحق ما قال العبد » إلى آخره . وفي رواية ابن أبي أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

ففى هذا الحمد رأس الشكر والإستغفار ، فإن ربنا غفور شكور ، فالحمد بإزاء النعمة ، والإستغفار بإزاء الذنوب . وذلك تصديق قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ . [النساء : ٧٩]

ففي سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي »[١] .

وفي حديث أبي سعيد : « الحمد رأس الشكر والتوحيد »[٢] .

---

(١) **صحيح** .
أخرجه البخاري (٦٣٠٦) (٦٣٢٣) ، وأحمد بن حنبل (٤ / ١٢٢ ، ١٢٤ ــ ١٢٥) عن شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً به .
ورواه أبو داود (٥٠٧٠) ، وابن ماجه (٣٨٧٢) ، وأحمد بن حنبل (٥ / ٣٥٦) عن عبد الله بن بريدة عن أبيه به مرفوعاً .

(٢) لم أقف عليه من رواية أبي سعيد ، وإنما عزاه الهندي فى « كنز =

كما جمع بينهما في أم القرآن . فأولها : تحميد ، وأوسطها : توحيد . وآخرها : دعاء .

وكما في قوله : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ﴾ . [غافر : ٦٥]

وفي حديث الموطأ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شيء قدير . من قالها : كتب الله له ألف حسنة . وحُطَّ عنه ألف سيئة . وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك . ولم يأت أحد ، بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه ومن قال في يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حُطَّتْ خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر »[1] .

= العمال » (٦٤١٩) لعبد الرزاق ، والبيهقي في « الشعب » من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ « الحمد رأس الشكر ، ما يشكر الله عبدٌ لا يحمده » .

(١) أخرجه مالك في « الموطأ » (ص ١٧٠) والبغوي في « شرح السنة » (٧ / ١٥٧) ، والبيهقي (٤ / ٢٨٤ ، ٥ / ١١٧) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الدعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .
وله شاهد عند الترمذي (٣٥٨٥) عن أبي هريرة بسند فيه حماد بن أبي حميد وهو ضعيف .
وقال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه .
وقال البيهقي : هذا مرسل وقد روى عن مالك بإسناد آخر موصولاً

وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة . وفيها التوحيد والتحميد . فقوله : ﴿ لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ﴾ توحيد . وقوله : ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ تحميد .وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والإستغفار ، في مواضع : مثل حديث كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك »[1] ، فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ،

ووصله ضعيف .

وله شاهد آخر عن علي بن أبى طالب مرفوعاً عند البيهقى ولكن سنده ضعيف أيضا .

أما من قوله « من قالها لا إله إلا الله ... إلى آخره » .

فأخرجه مالك فى الموطأ « ص ١٦٧ » عن أبي هريرة مرفوعاً بسند صحيح .

(١) **صحيح** .

ورواه جمع من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم . منهم أبو هريرة ، عبد الله بن عمرو ، عبد الله بن مسعود ، أبو برزة الأسلمي .

— حديث أبو هريرة .

أخرجه أبو داود (٤٨٥٨) ، وأحمد بن حنبل (٢ / ٣٦٩) من طريقين عنه به مرفوعاً .

— حديث أبو برزة الأسلمي .

أخرجه أبو داود (٤٨٥٩) ، والدارمي فى « سننه » (٢ / ٢٨٣) من طريقين عن الحجاج بن دينار ، عن أبي هاشم ، عن أبي العالية عنه به مرفوعاً .

والإستغفار . من قالها في مجلس ، إن كان مجلس لغط ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر كانت كالطابع له .

وفي حديث أيضاً : « إن هذا يقال عقب الوضوء » . ففي الحديث الصحيح في مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء »[1] .

وقد روي عن طائفة من السلف ، في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، إنك خير الغافرين ، اللهم لا إله إلاَّ أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فارحمني ، فأنت خير الراحمين ، لا إله إلا

حديث عبد الله بن عمرو وابن مسعود . عند الطبراني في « الكبير » وهو عند أبي داود (٤٨٥٧) موقوفا من كلام ابن عمرو رضى الله عنه .

(١) **صحيح** .
رواه مسلم (٢٣٤) ، وأبو داود (١٦٩) ، والترمذي (٥٥) ، والنسائي (١ / ٩٢ ــ ٩٣) ، وأحمد بن حنبل (٤ / ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٣) عن عقبة بن عامر به مرفوعاً .
ورواه ابن ماجه (٦٠) من حديث أنس بن مالك .

أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتب عليّ ، إنك أنت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء ، وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار ، فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله ؛ فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو . والإستغفار من ذنوب النفس ، التي منها تأتي السيئات .

وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد والإستغفار في غير موضع .

كقوله : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ . [محمد : ١٩]

وفي قوله : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير وأن استغفرو ربكم ثم توبو إليه ﴾ . [هود : ٢]

وفي قوله : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد . فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ . [فصلت : ٦]

وفي حديث رواه ابن أبي عاصم وغيره : « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بالإستغفار ، وبلا إله إلا الله . فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[1] .

---

(١) **ضعيف جداً .**

والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠ / ٢٠٧) وقال : رواه

و« لا إله إلا الله » تقتضي الإخلاص والتوكل . كلمة الإخلاص هي أفضل الكلام ، وهي أعلى شعب الإيمان .. كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ ، أنه قال : « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق : والحياء شعبة من الإيمان »[1] .

أبو يعلى وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف .

قلت : هو عند أبى يعلى فى « مسنده » (١٣٦) ، وابن أبى عاصم فى « السنة » (١ / ٩ — ١٠) عن محرز بن عون ، حدثنا عثمان بن مطر ، حدثنا عبد الغفور ، عن أبي نصيرة ، عن أبى رجاء ، عن أبى بكر الصديق مرفوعاً به .

قلت : وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء .

عثمان بن مطر : ضعيف .

وعبد الغفور هو ابن عبد العزيز الواسطى أبو الصباح قال البخاري : تركوه ونسبه ابن حبان للوضع .

وأبو نصيرة هو الواسطي مسلم بن عبيد وثقة أحمد بن حنبل ، وقال ابن معين : صالح . ترجم له ابن أبي حاتم فى « الجرح والتعديل » (١ / ٤ / ١٨٨) وأبو رجاء إن كان هو العطاردي كما ذكره ابن أبي حاتم فى شيوخ مسلم بن عبيد فهو ثقة . وإن كان مولى أبى بكر فهو مجهول قاله الحافظ فى « التقريب » .

(١) **صحيح** .

رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) ، والترمذي (٢٦١٤) ، والنسائي (٨ / ١١٠) ، وابن ماجة (٥٧) ، وأحمد بن حنبل (٢ / ٣٧٩ ، ٤١٤ ، ٤٤٥) عن أبي هريرة به .

فـ« لا إله إلا الله » هي قطب رحى الإيمان ، وإليها يرجع الأمر كله . والكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، وهي معنى : « لا إله إلا الله » و« لا حول ولا قوة إلا بالله » ، وهي من معنى : « لا إله إلا الله » ، و« الحمد لله » في معناها ، « وسبحان الله ، والله أكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .



فصـــل

الرد على تفسير شاذ لقوله تعالى : « فمن نفسك »

وقد ظن بعض المتأخرين أن معنى قوله « فمن نفسك » ، . أي : أفمن نفسك ؟ وأنه إستفهام على سبيل الإنكار ، ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله ، لا من نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية ؛ فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان ، أي بذنوبه ، وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك : أبو بكر بن فورك ؛ معناه : أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهراً عدد الرمل والحصى والتراب

قلت : وإضمار الاستفهام ، إذا دل عليه الكلام ، لا يقتضي جواز إضماره في الخبر المخصوص من غير دلالة ؛ فإن هذا يناقض المقصود ، ويستلزم أن كل من أراد أن ينفي ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر في خبره إستفهاماً ، ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم في قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ هذا ربي ﴾ [الأنعام : ٧٦] أهذا ربي ؟

قال ابن الأنباري : هذا القول شاذ ، لأن حرف الإستفهام

لا يضمر إذا كان فارقاً بين الإخبار والإستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء : ٣٤] . وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه قد تقدم الإستفهام في أول الجملة ، في الجملة الشرطية ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ [الأنبياء : ٣٤] ، فلم يحتج إلى ذكره ثانية ، بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله : ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ [آل عمران : ١١٤] وقوله : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ﴾ [البقرة : ٨٧] ، وقوله : ﴿ أَوَ كُلَّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ﴾ [البقرة : ١٠٠] . وهذا من فصيح الكلام وبليغه واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدرى ، وإن كنت دارياً
بسبع رمين الجمر ؟ أم بثمان ؟

وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط
غلس الظلام من الرباب خيالا ؟

تقديره : أكذبتك عينك ؟

وهذا لا حجة فيه ، لأن قوله فيما بعد « أم بثمان » و« أم رأيت » يدل على الألف المحذوفة في البيت الأول . وأما الثاني : فإن كانت « أم » هي المتصلة فكذلك ، وإن كانت المنفصلة فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم أن النفس لا تأثير لها في وجود السيئات ، وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : إن المعاصي علامة محضة على العقوبة لاقترانها بها ، لا أنها سبب لها .

وهذا مخالف للكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف ، وللعقل .

* * *

[الله لا يهلك أحداً ولا يعذبه إلا بذنب]

والقرآن يبين في غير موضع أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب ، فقال هنا :

﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ . .

وقال لهم في شأن أُحد : ﴿ ولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ . [آل عمران : ١٦٥]

وقال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ . [الشورى : ٣٠]

وقال تعالى في سورة الشورى أيضاً : ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ . [الشورى : ٤٨]

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ . [يونس : ٥٠]

وقال تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ . [الشعراء : ٢٠٨ — ٢٠٩]

وقال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ [القصص : ٥٩]

وقال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ . [الروم : ٤١]

وقال تعالى : ﴿ ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ . [السجدة : ٢١]

وقال تعالى : ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : ٣٤]

وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لمّا أهلكها بذلك العذاب : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ . [القلم : ٣٣]

وقال تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيه صِرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلتكه وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ . [آل عمران : ١١٧]

وقال تعالى عن أهل سبأ : ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل

العرم ـــ إلى قوله ـــ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ . [سبأ : ١٦ ـــ ١٧]

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ . [هود : ١٠٢]

وقال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥]

وفي الحديث الصحيح الإلهي : « ياعبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً ، فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه » .

وفي سيد الاستغفار : « إبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » .

وقال تعالى : ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ . [الطور : ٤٧]

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم . ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *



الفهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب
٨٨ / ٢٧٦٣

مطابع مؤسسة أخبار اليوم
القـاهـرة



مطابع مؤسسة أخبار اليوم

القاهرة